مكتبة الأسرة
٢٠٠٠
مهرجان القراءة للجميع
2000
عشر سنوات

الروائع

الديوان في الأدب والنقد

عباس محمود العقاد • إبراهيم عبد القادر المازني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الديـــوان
فى الأدب والنقد

الديوان في النقد والأدب

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: تكوين خطى

التقنية: اكريلك وخامات أخرى على ورق

المقاس :٤٢×٩٤,٥ سم

حامد عبدالله (١٩١٧- ١٩٨٥)

فنان متميز، شق طريقه بأسلوبه الخاص معتمداً على موهبته. اتبع الأسلوب التأثيرى، ثم اتجه إلى الفن الفطرى. هاجر إلى أوروبا منذ وقت مبكر؛ وهناك اتجه إلى تشكيلات حروف الكتابة العربيةلينسج منها لوحات ذات خصوصية وتميز، فاهتم بتحقيق التعبير التشكيلى من وحى مضمون الكلمة المكتوبة رسمًا، وعبر عن محتواها. أقام الفنان أول معارضه عام١٩٤٠. وافتتح معهداً خاصًا لتدريس الرسم عام١٩٤٢. وكان من تلاميذه الفنانات تحية حليم وإنجى أفلاطون وصفية حلمى حسين. وقد أقام معرضًا شاملاً لأعماله عام١٩٥٦. وهاجر بعدها إلى أوروبا. عاد إلى القاهرة عام١٩٨٣ ليقدم نماذج من إنتاجه خلال نصف قرن.

... محمود الهندى

الدّيـــوان
فى الأدب والنقد

عباس محمود العقاد
إبراهيم عبد القادر المازنى
تقديم: د. ماهر شفيق فريد



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الروائع)

الديوان
فى الأدب والنقد
عباس محمود العقاد
إبراهيم عبد القادر المازنى
تقديم: د. ماهر شفيق فريد

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشـــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

تصدير

حين تقدم مكتبة الأسرة فى إطار مهرجان القراءة للجميع النص الكامل لكتاب «الديوان فى الأدب والنقد» لمؤلفيه عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى فإنها تضع تحت أنظار قراء اليوم - وكثير منهم من الشباب الذى لم يعاصر العقاد ولا المازنى - وثيقة من أهم وثائق النقد العربى الحديث ، ومعلما من معالم التطور الأدبى فى مصر .

كان المؤلفان ينتويان أن يصدرا الكتاب فى عشرة أجزاء ، بيد أنه لم يظهر منه سوى جزءين طبع أولهما فى يناير وثانيهما فى فبراير سنة ١٩٢١ وأعيد طبعهما بعد شهرين وأصدرت دار الشعب طبعة ثالثة منه لا تحمل تاريخا . ويذكر الدكتور عبد العزيز الدسوقى فى كتابه «تطور النقد العربى الحديث فى مصر» أنه «على الرغم من أن هذا الكتاب قد طبع طبعا رديئا على ورق أصفر تقتحمه العين ، والجزء الأول يبلغ من الصفحات ٦٢ صفحة ولا يزيد الثانى على هذا الحجم إلا قليلا . فإن هذين الجزءين الصغيرين أحدثا من الدوى فى الربع الأول من القرن العشرين ما لم يحدثه كتاب أدبى آخر باستثناء كتاب أدبى آخر جاء بعدهما .. هو الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين» .

كان الدوى راجعا إلى جمع الكتاب بين النظر والتطبيق ، وطرحه مفهوما جديدا للشعر يغاير ما كان سائدا ، ونقده أعلام العصر - شوقى وعبد الرحمن شكرى شعرا ، والرافعى والمنفلوطى نثرا - نقدا أوفى على الغاية فى شدته وقسوته . منطلق الكاتبين «إنسانى مصرى عربى : إنسانى لأنه من ناحية يترجم عن طبع الإنسان خالصا من تقليد الصناعة المشوهة، ولأنه من ناحية أخرى ثمرة لقاح القرائح الإنسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصرى لأن دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لأن لغته العربية » . وهدف الكتاب «إقامة» حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما » .

وتحقيقا لهذا الهدف صب العقاد نفسه سوط عذاب على شوقى والرافعى ، بينما وجّه المازنى سهام نقده إلى المنفلوطى وشكرى . ورغم انفراد كل من المؤلفين بشخصية فكرية مستقلة ، ومنهج تعبيرى متميز ، لن يصعب على القارئ أن يرى أنهما يلتقيان فى الكثير ، مع زيادة هنا أو نقص هناك ، وأنهما ارتويا من نفس الينابيع الفكرية والأدبية ، وتلاقت آراؤهما فى كبريات المسائل ، ومن ثم خرج الكتاب عملا متسقا، يكمل فيه كلٌ من الكاتبين صاحبه .

ولا مراء فى أن القسم الذى اختص به العقاد شوقيا هو المسئول الأول عن هذا الدوى الذى أحدثه الكتاب . فقد خرج العقاد عن الاجماع إذ انعقد الرأى - أو كاد - على أن شوقى هو أعظم شعراء العربية فى

عصره ، وأنه مجدد ديباجة الشعر العربى منذ المتنبى . فجاء العقاد ليقول أن شعره شعر الصنعة لا شعر الطبع ، تغيب عنه الشخصية الإنسانية المتميزة ، ولا تكاد تجد فيه أثرا للشعور الصادق والفطرة الحية ، وإنما هو زخرف ونسج على منوال الأقدمين . لم يُلق العقاد القول على عواهنه ، ولم يرسله إرسالا ، وإنما قدم تحليلا دقيقا - وإن لم يخل من تحامل وشطط لعدد من قصائد شوقى مثل النشيد القومى الذى نظمه (وقد فضل عليه العقاد نشيد شاعر شاب - وقتها - هو عبد الرحمن صدقى) ورثائه لمحمد فريد (حيث قارنه العقاد بالمعرى) ورثائه لعثمان غالب (وقد حاكاه العقاد محاكاة ساخرة منظومة) وقصيدته فى استقبال أعضاء الوفد المصرى ، ورثائه لمصطفى كامل (وقد أعاد العقاد ترتيب أبياته ليدلل على افتقارها إلى الوحدة العضوية) ورثائه للأميرة فاطمة بنت إسماعيل . وكان نقد العقاد لشوقى فى هذا كله أشبه بما يسميه ت. س. إليوت «نقد الورشة» : النقد الذى يمارسه مزاول لصنعة الشعر ، خبير بمضايقه ، وليس مجرد مُنّظر تعوزه المعرفة الحميمة بفن القريض . على أن هذا النقد التطبيقى كانت ترفده ثقافة عريضة ، واستيعاب للرومانسية الإنجليزية والمثالية الألمانية والنقاد العرب الكلاسيين كالحاتمى والجرجانى (سبق الحاتمى فى «زهر الآداب» إلى تقرير مبدأ الوحدة العضوية فى القصيد) . ومما ضاعف من قوة الأثر الذى أحدثه هجوم العقاد على شوقى حدة لفظه ، ولدده فى الخصومة ، وجمعه بين المنطق الصارم وبلاغة القلم ، واستراتيجياته الجدلية ، وتلك النبرة الحارة التى تسرى فى تضاعيف نثره فتحيله - فى بعض اللحظات - إلى ما يشبه الشواظ الحارق الذى يحرق ويدمر .

لم يكن العقاد أول من هاجم شوقى ، فقد سبقه إلى ذلك محمد المويلحى الذى نقد ديوان شوقى الصادر فى ١٨٩٧ . ولم يكن «الديوان» هو أول عمل للعقاد يفصح عن رأيه فى أمير الشعراء ، ففى كتابه الباكر «خلاصة اليومية» إرهاص بماسيلى . لكن فصول العقاد هنا كانت تمثل نقلة نوعية فى نقد عصره وذلك بجمعها بين النقد التطبيقى الدقيق والمنطق النظرى المحدد . فمن خلال فحصه لصنعة شوقى الشعرية - معجم ألفاظه ، وصوره ، وترتيب أفكاره ، وتناصه مع السابقين ينتهى العقاد إلى أن شعره يعانى من عيوب أربعة هي: التفكك، والإحالة،والتقليد، والولوع بالأعراض دون الجوهر. ويضرب العقاد أمثلة لكل عيب من هذه العيوب ، مرسيا إذ يفعل ذلك عددا من الأصول النقدية بالغة الأهمية .

أول هذه الأصول إيمان العقاد بأن الشعر ليس صنعة ولا لهوا ولا زخرف ، وإنما هو لباب اللباب ، وأداة معرفية لمعرفة الذات والآخرين والكون . فالشاعر المطبوع هو الذى يجمع بين عمق الفكر ورهافة الوجدان وخصب الخيال والتمكن من اللغة . إنه الذى «يفرق بين شبهات السرائر وهجسات الضمائر و . . لا تدق عنه أخفت همسات العواطف ولا تلتبس عليه أخفى ألوانها . . يقولون إن أذن الموسيقى المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا إن فطرة الشاعر ينبغى أن تميز بين ثلاثة ألاف خطرة من خطرات الإحساس المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا» .

وثانى هذه الأصول هو مفهوم الوحدة العضوية ، أو على حد تعبير العقاد : «إن القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة» . بهذا قوض العقاد النظرة التقليدية إلى «بيت القصيد» أو البيت الذى يكون أمير شعر الشاعر ، فإنما قيمة البيت فى موقعه من كلٍ أكبر ، من معمار القصيدة الكلىّ ، وإلا جاء نتوءا ونشازا يلفت النظر إلى ذاته ، وينسى أنه جزء من كل ، يقوم بقيامه ويسقط بسقوطه .

وثالث هذه الأصول أن هدف الشعر هو الوصول إلى الحقيقة الجوهرية وعدم الوقوف عند الظاهر . ويعبر العقاد عن ذلك تعبيرا رائعا غدا من القطع الخالدة locus classicus فى النقد العربى . وقد كنت أتمنى لو أوردت كلامه هنا كاملا ، على طوله ، لأن كل كلمة فيه تضيف شيئا ، ولا تقبل الاجتزاء ، ولكنى مراعاة لقيود الحيز - أكتفى بإيراد مطلع القطعة التى سيلتقى بها القارئ بعد قليل . يقول العقاد مخاطبا شوقى .

«اعلم ، أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها وألوانها ، وأن ليست مزية الشاعر أن

يقول لك عن الشئ ماذا يشبه وإنما مزيته أن يقول ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من القصيد أن يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع وإنما همهم أن يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم فى نفس إخوانه زبدة ما رآه وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه . وإذا كان وكدك من التشبيه أن تذكر شيئا أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شئ واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك»

وصف الدكتور محمد مندور - وكانت بينه وبين العقاد خلافات كثيرة فى الرأى - هذا الجزء من كلام العقاد وما يليه بأنه «كلام رائع يدل على فهم صحيح لحقيقة الشعر كما يفهمه الغربيون» (مندور ، النقد والنقاد المعاصرون) وأثنى على هذه «الفقرات القوية المركزة» وإن أردف ذلك ببعض تساؤلات عما يقصده العقاد بلباب الأشياء (والحق أنها معضلة فلسفية أعقد من ذنب الضب) ورأى فى كلامه جمعا بين عدة مذاهب شعرية غربية متصارعة. ولا ريب فى أن الذى يقوله العقاد هنا (وإن كان مألوفا لقارئ كانط وهيجل وشلنج وشلجل وكولردج) كان ثورة فكرية فى مطالع القرن العشرين ، ونقلة نوعية خطت بالنقد الأدبى فى مصر خطوات .

ومما ضاعف من أثر نقد العقاد هنا تلك اللهجة الحادة التى اصطنعها ، وسخريته الهاجية التى تكاد تشفى على السباب : «تلك الخرق المنتنة»

(يعنى بعض الصحف الأسبوعية) « الحشرات الآدمية» «عاهاتهم ومقاذرهم» «أوباشها» «نفاية المجتمع وشذاذه» . وتبلغ هذه الحدة أقصاها حين يخاطب العقاد الرافعى فيقول .

«إيه يا خفافيش الأدب . أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة، لا هوادة بعد اليوم . السوط فى اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت . وسنفرغ لكم أيها الثقلان فأكثروا من مساوئكم فإنكم بهذه المساوئ تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها حسناتكم إن كانت لكم حسنة يحسها الأدب والحقيقة» .

إن العقاد هنا - مع التسليم بتحامله وخروجه عن الموضوعية - ينضم إلى صفوف الهجائين الكبار :جوفنال ، وفولتير ، وبوب ، وسويفت ، وهاوسمان ممن كانوا لا يترددون فى استخدام كل حيلة بلاغية أو أداة تعبيرية فى نقض حجة الخصم ، بل نسفه هو ذاته نسفا . ولم يكن العقاد بدعا فى ذلك : فالرافعى فى كتابه «على السفود» ورمزى مفتاح فى «رسائل النقد» - وكلاهما هجوم ضار على العقاد - قد عمدا إلى مثل ذلك ، أو أكثر .

والواقع أن فهم القارئ لموقف العقاد من شوقى لا يمكن أن يكتمل دون الرجوع إلى وثيقتين أخريين : رسالة العقاد المسماة «رواية قمبيز فى الميزان» حيث يتناول مسرحية شوقى من ثلاث زوايا:حسن النظم والصياغة ؛ تمحيص حوادث التاريخ : ابتكار الخيال فيما قصر فيه

المؤرخون ، فيأخذ عليه - مستخدماً مقاييس النقاد العرب القدامى والبلاغيين التقليديين - تغييره صور الأسماء التاريخية ، ومخالفاته النحو والصرف ، وسرقاته الشعرية ، وافتقاره إلى الصحة التاريخية ، وتملقه الشعب وذوى النفوذ .

وهناك ذلك الفصل الذى عقده العقاد لشوقى فى كتابه «شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى» ، وفيه مقارنة رائعة بين أبيات لشوقى وأبيات لابن الرومى فى وصف الربيع ، تكشف عن قصور الشاعر الحديث بالمقارنة بسلفه العظيم . يورد العقاد قصيدة شوقى التى مطلعها .

آذار أقبل قم بنا يا صاح حىِّ الربيع حديقة الأرواح

ليقارنها ببيتين من ابن الرومى فى إحدى ربيعياته . يقول العقاد (ومرة أخرى أكتفى آسفا بمطلع كلامه ، وكنت أود لو أوردته كاملا ، فهو كلٌ تتضافر أجزاؤه على طرح الفكرة وتجسيمها ، وهو من أروع نماذج النقد التطبيقى التى لا تقل عما كان يبدعه إليوت ورتشاردز فى العشرينيات ، ثم أصحاب مدرسة النقد الأنجلو - أمريكى الجديد - ليفيز وإمبسون وبروكس ووارن وبلاكمر وتيت ورانسوم فى عقود تالية) :

«خذ ذلك الربيع الحى من بيتين اثنين ليس فيهما رنين ولا عذوبة مصطنعة ، ولكنك حين تقرأهما - تحس أن قائلهما قد شعر بالربيع «الحيوى» فى أعماقه ولم يفته شئ مما يبثه فى عالم الحياة كله ، ولم يكن

الربيع عنده ولا عند من يلاحظون هذه الملاحظة مروحة ولا سجادة ولا قيلولة ولا مجلس شراب ، ولكنه كان ثورة نامية فى الشعور وثروة زاخرة فى عالم النبات والأحياء بأوسع معانى الحياة ، وهذان البيتان هما قوله فى إحدى ربيعياته :

تجد الوحوش بـه كفايتها — والطير فيه عتيدة الطعم

فظباؤه تضحى بمنتطح — وحمامه يضحى بمختصم

فلم تبق فى الدنيا حياة لم يشاركها ربيعها قائل هذين البيتين بلا حاجة إلى الزخرف ولا إلى التكلف ، ولم يتصور قائل هذين البيتين ربيعه الجميل راحة جسدية ولا متعة حسية ولا وشيا ولا زينة ، ولكنه تصوره ذخيرة «حيوية» نامية ومرحا متفجرا من الأعماق يضيق به نطاق كل حياة ، فإذا هى تختصم فى لعب وفى قوة ، وإذا هى تعاف الراحة فتبذل بعض ما عندها من النشاط الغالب فى النطاح والخصام . ولو رأى الشوقيون ألف ربيع فوق هذه الأرض وتحت هذه السماء لما خطر لهم قط أن النطاح أو الخصام معنى من المعانى الربيعية التى يستوحيها الشعراء من موسم الحياة . . » .

أما المازنى - وكان اهتمامه بالقص النثرى أكبر من اهتمام العقاد - فقد اتخذ من إحدى قصص المنفلوطى - قصة «اليتيم» من كتاب «العبرات» - نموذجا لأدب الضعف والخور والتهافت ، وجنوحا إلى

الحلاوة والنعـومة والأنوثة ، وأخـذ على المنفلوطى إسرافـه فى استـخدام المفعول المطلق (عدّله فى هذه القصة أكـثر من ثلاثين مفعولا مطلقا ، على طريقة الدكتور محمد عبـد المطلب فى عصرنا !) وكثرة نعوته وأحواله . وكانت نغمة المازنى فى هذا كله أمـيل إلى الفكاهة ، وأقل جدا عابسا من نغمة العقاد .

لكن المازنى حين يتحدث عن شكرى - زميله بـل أستاذه فى مدرسة الديوان - يجاوز كل الحدود اللائقـة فى التعبير ، فـيـسمى شكرى «صنم الألاعيب» ويصفه بعبارات من قبـيل : «طوفان من الأوحال النفسية» «هذا المنكود» «المرزوء فى عقله» . ويسجل انشغاله بالخوف من الجنون ، وتردد لفظ «الجنون» ومـا جرى مجـراه فى شعـره ونثره ، وجنوح تفكـيره إلى الاجرام والانتحار ، مـوحيا إلى القارئ أنه إزاء حالة مرضية أو شـخصية سيكوباتية. وقد كـان لهذا النقد الجارح أثر كبير فى اعـتزال شكرى الحياة الأدبية ، وامتلاء نفسه بالمرارة والألم ، إلى أن رحل عن عالمنا فى ديسمبر ١٩٥٨ مشلولا وحيدا معزولا لا يكاد يذكره أحد ، بينما طبق ذكر زميليه الآفـاق ، وإن قُيض له ، بعـد رحيله ، مـن الدارسين والأدباء من نوهوا بفضله ، ورفعوا ذكره .

ويقتضينا الإنصاف أن نضيف أن العـقاد والمازنى ندما فيما بعد على ما فرط منهما من قسـوة بالغة فى حق شوقى وشكرى ، فكتب العقاد فى مجلة «الهلال» (أكتوبر ١٩٥٧) عن «شاعـرية شوقى فى الميزان» حيث أقر

لـه بالنبـوغ فـى الصنعـة والتمكن مـن الأداء . بينما كـتب المازنى فى جـريدة الـسـيـاسـة (٥ ابريـل ١٩٣٠) مقـالة عن «التـجـديد فى الأدب المصـرى» قال فـيهـا : «من اللؤم الذى آنجافى بنفـسى عنـه أن أنكـر أنه أول مـن أخـذ بيدى وسـدد خطاى ، ودلنى على المحجـة الواضـحة ، وأننـى لولا عونه المسـتمر لكان الأرجح أن أظل أتخبط أعـواما أخرى ، ولكان من المحـتـمـل جـدا أن أضـل طـريق الـهـدى» . وأردف هـذه المقالة بمقالـة أخـرى فـى عدد ١٢ ابريل ١٩٣٠ من الجريدة نفسـها أكد فيـها موهبة شـكرى وسبقه إلـى التجديد (انظر مندور ، النقـد والنقاد المعاصرون) .

ماذا يبقى من شوقى وشكرى والرافعى والمنفلوطى بعد هذه الضربات الموجعـة التى كالها لهم شابان طمـوحان ، بعيدا مطـارح الآمال ، وافرا الحظ من النبوغ والذكـاء والحساسية ، غـزيرا العلم ، أخذا نفسيـهما منذ البداية بالجد الصـارم والمشقة ؟ أما شوقى فقد عـاش ، وسيظل يعيش ، لأنه عبقرية شعرية لامراء فيهـا (انظر إلى لهجة الاحترام ، بل التوقير ، التى مازال ثروت أباظة وفاروق شـوشة وآخرون يتحدثون بهـا عن شاعر العزيز!) .

وأما شكرى فقد عاشت منه بضع قصائد - أبرزها قصيدة «المجهول» العظيمة - وكتاب «الاعترافات» وبعـض مقالات نقدية . وأما الرافعى فقد انضم إلى صفـوف الموتى المبجلين فى مقابر الأدب ، وإن خف إلى بـعثه من مرقده - بين الحين والحين - نقاد كبار كالدكتور عبد القادر القط .

وأما المنفلوطى فقد مات موتا طبيعيا بالسكتة الذوقية (ربما كانت روايات محمد عبد الحليم عبد الله هى آخر ارتعاشة لذبالته المرتجفة فى مهب الريح) إذ تغير العصر ، وتبدلت الحساسية ، وظهر - منذ منتصف الأربعينيات - كتاب من طراز إدوار الخراط ويوسف الشارونى وبدر الديب وعباس أحمد ومنير رمزى ، عرفوا الرمزية والتعبيرية والسريالية وما جرى مجراها .ثم جاء مدّ الواقعية الطامى على أيدى حقى ونجيب محفوظ وعادل كامل والسحار والبدوى وأضرابهم فأجهز على نظرات المنفلوطى وعبراته ، وكشف عن تهافتها العاطفى وسذاجتها الفكرية وأسلوبها الإنشائى .

وتظل كلمات العقاد والمازنى - فى غمرة هذا كله - حية ناضرة بعد ثمانين عاما أو نحوها ، لأنها كانت فى عصرها إرهاصا بتغير فى الذائقة الأدبية ، بل فى مفهومنا للشعر والقص ذاته . لم يكن العقاد والمازنى مجرد ناقدين وإنما كانا مبدعين بحقهما الخاص: الأول هو صاحب رواية «سارة» الفريدة ، وحفنة من القصائد العظيمة «نفثة» (ظمآن ظمآن . . .) «إيه يا دهر» «يوم الظنون» «القمة الباردة» «الكروان» ، والدراسة العظيمة لابن الرومى (فى حديث لإدوار الخراط بمجلة «المصور» ٣٠/٦/٢٠٠٠ بمناسبة حصوله على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب (بالمشاركة) لهذا العام ، يقول: «العقاد فشل فى الرواية وقدم شعرا متوسطا لأنه ليس مفكرا حقيقيا ، وكان يردد نظريات النقاد الانجليز المعروفين على أيامه ،

وهو ناقد سيئ ومفكر ضعيف » وهذا كله هراء من جانب عميد الحداثيين أهون ، فى ميزان النقد الصحيح والقسطاس المستقيم ، من أن يستحق حتى عناء الرد عليه) . وأما المازنى فصاحب رواية «إبراهيم الكاتب» العظيمة (يفيها الخراط حقها من التقدير فى كتابه «الحساسية الجديدة» ، دار الآداب ، بيروت ١٩٩٣) وعدد من القصائد والأقاصيص والفصول لا تقل عن ذلك جدارة بالذكر .

بين يديك - أيها القارئ - كتاب لا يخلو من تطرف وإجحاف وتحامل ، ولكنه لا يخلو أيضا من نظرات صادقة ، وملاحظات نقدية رهيفة ، وبصيرة سبقت عصرها . كان العقاد والمازنى رجلين فيهما مافى سائر الرجال من قوة وضعف ، وحيدة وهوى ، وصواب وخطأ ، ولكنهما كانا - وتلك شفاعتهما بإزاء أى عيوب - عقلين عظيمين جمعا بين أنضج ثمار الفكر الغربى والتراث العربى ، والتقت فيهما - إذا استعرنا تعبير إليوت - جدائل الموروث والموهبة الفردية ، أو التقت - بتعبير ماثيو أرنولد - قوى اللحظة التاريخية والرجل . أما اللحظة فيعبر عنها المازنى حيث يقول ، وكأنه أحد أبناء العصر الفيكتورى - تنسون أو كارلايل أو أرنولد أو هاردى - ممن خبروا عذاب الصراع بين العلم والدين ، وآلام الانتقال من مجتمع الزراعة إلى مجتمع الصناعة ، وتغير الأخلاقيات القديمة ، وتصدع القيم التقليدية ، واختلاف أنماط الفكر والشعور والعيش بين الريف والحضر :

« إنا نعيش فى عصر تفكير عميق ، وعهد قلق عظيم واضطراب كبير، وشك مخيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيقات ؛ عصر تعتصر فيه العقول ويستنفد فى حيرته مجهود القلوب . وقد استولت الظلمة على عوالمنا السياسية والخلقية والعقلية ، وصارت حياتنا محيطا زاخر العباب يضطرب بنا متنه فى عشى ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظمأ إلى المعرفة والحنين إلى النور » .

وأما الرجل - ويمثله هنا العقاد والمازنى وشكرى - فيعبر عنه العقاد حين يقول فى مقدمته للجزء الأول من ديوان المازنى الصادر فى ١٩١٣ :

«نحن اليوم غيرنا من عشرين سنة . لقد تبوأ منابر الأدب فتية لا عهد لهم بالجيل الماضى . نقلتهم التربية والمطالعة أجيالا بعد جيلهم فهم يشعرون شعور الشرقى ويتمثلون العالم كما يتمثله الغربى . وهذا مزاج أول ما ظهر من ثمراته أن نزعت الأقلام إلى الاستقلال ، ورفع غشاوة الرياء والتحرر من القيود الصناعية . هذا من جهة الأغراض والأنساق . وأما من جهة الروح والهوى فلا يعسر على الندس [الفطن] البصير أن يلمح مسحة القطوب للحياة فى أسرة الشاعر العصرى الحديث ، ويتفرس هذا القطوب حتى فى الابتسامة المستكرهة التى تتردد أحيانا بين شفتيه» .

هذه كلمات مضيـئة تستحق أن تقارن بالثورة التي أحـدثها فى الشعر الإنجليـزى، فى ذلك الزمن ذاته ، پاوند وإليـوت ، فلا يخـرج العقـاد والمازنى من المقارنة خاسرين .

ماهر شفيق فريد

المهندسين ، يوليو ٢٠٠٠

مقدمة

بسم الله نبتدئ (وبعد) فإن كان للسكوت عن الخوض فى أحاديث الأديب داع فقد زال ذلك الداعى اليوم ، وقد تجددت دواع للكتابة فى أصوله وفنونه ، أخصها الأمل فى تقدمه ، لالتفات الأذهان إلى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس لاجتراء الأدعياء والفضوليين عليه ، وتسلل الأقلام المغموزة والمآرب المتهمة إلى حظيرته . وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الأمل وتوقى تلك العلل . وهو كتاب يتم فى عشرة أجزاء[1] . موضوعه الأدب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد فى الشعر والنقد والكتابة وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المذهب فى بضع السنوات الأخيرة ورأوا بعض آثاره وتهيات الأذهان الفتية المتهذبة لفهمه والتسليم بالعيوب التى تؤخذ على شعراء الجيل الماضى وكتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب فى اجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبدوءا ونرجو أن تكون فيه موفقين إلى الافادة مسددين

(١) لم يظهر من الديوان فى النقد والأدب إلا جزءان طبع أولهما فى يناير وثانيهما فى فبراير سنة ١٩٢١ وأعيد طبعهما بعد شهرين .

إلى الغاية . وأوجز مـا نصف به عملنا - أن أفلحنا فيه - أنه أقـامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهمـا والاختلاط بينهما ، وأقرب ما نميز به مذهبنا أنه مذهب انسانى مصرى عربى : انسانى لأنه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خـالصا من تقليـد الصناعة المشوهة ، ولأنه من ناحـية أخرى ثمرة لقاح الـقرائح الانسـانية عامة ، ومظهر الـوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصرى لأن دعاته مـصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لأن لغته العربية ، فهو بهذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت فى لغة العرب منذ وجدت ، إذ لم يكن أدبنـا الموروث فى أعم مظاهره إلا عربيا بحتا يدير بصره إلى عصر الجاهلية .

وقد مـضى التاريخ بسرعـة لا تتبـدل ، وقضى أن تحطم كل عقـيدة أصناما عبدت قـبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحـيحا أوجب وأيسر من وضع قسطاس الصحـيح ، وتعريفه فى جميع حالاته ، فلهـذا اخترنا أن نقدم تحطيم الأصنام الباقـية على تفصيل المبادئ الحديثـة ، ووقفنا الأجزاء الأولى على هذا الغرض ، وسنردفها بنماذج للأدب الراجح من كل لغة ، وقواعـد تكون كالمسبـار وكالميزان لاقـدارها . فإن أصبنا الهـدف والا فلا أسف . وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بيانا .


الجـزء الأول

شوقى فى الميزان (توطئة)

كنا نسمع الضجة التى يقيمها شوقى حول اسمه فى كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات فى البلد ، لا استضخاما لشهرته ولا لمنعة فى أدبه عن النقد ، فإن أدب شوقى ورصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه فى اعتقادنا أهون الهينات . ولكن تعففا عن شهرة يزحف إليها زحف الكسيح ، ويضن عليها من قوله الحق ضن الشحيح ، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها طى الضريح ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين إذا أزدروا شيئا لسبب يقنعهم لم يبالوا أن يطبق الملأ الأعلى والملأ الأسفل على تبجيله والتنويه به فلا يعنينا من شوقى وضجته أن يكون لهما فى كل يوم زفة ، وعلى كل باب وقفة . وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وغدا لولا أن الحرص المقيت أو الوجل على شهرته المصطنعة تصرف به تصرفا يستثير الحاسة الأخلاقية من كل إنسان وذهب به مذهبا تعافه النفس . فإن هذا الرجل يحسب أن لا فرق بين الإعلان عن سلعة فى السوق والارتقاء إلى أعلى مقاوم السمعة الأدبية والحياة الفكرية ، وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين أن الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة أن يشترى السنة السفهاء ويكم أفواههم ، فإذا استطاع أن يقحم اسمه على

الناس بالتهليل والتكبيـر والطبول والزمور فى مناسبة وغيـر مناسبة وبحق أو بغيرحـق فقد تبوأ مقـعد المجد وتسنم ذروة الخلود ، وعفـاء بعد ذلك على الأفـهام والضمـائر ، وسحـقا للمـقدرة والانصـاف وبعدا للحـقائق والظنون ، وتبا للخجل والحياء ، فـإن المجد سلعة تقتنى ولديه الثمن فى الخزانة ، وهل للناس عقول ؟؟

ومن كان فى ريب من ذلك فليتحقـقه فى تتابع المدح لشوقى ممن لا يمدح الناس إلا مأجورا . فقد علم الخاصـة والعامة شأن تلك الخرق المتنة نعنى بها بعض الصحف الأسبوعية . وعرف من لم يعرف أنها ما خلقت إلا لثلب الأعراض والتسول بالمدح والذم وأن ليس للحشرات الآدمية التى تصـدرها مرتزق غـير فضـلات الجبنـاء وذوى المآرب والحزازات . خـبز مسموم تـستمرئه تلك الجيف التى تحركـها الحياة لحكمة كمـا تحرك الهوام وخشاش الأرض . فى بلد لو لم يكن فيه من هو شر منهم لماتوا جوعا أو تواروا عن العـيون . هذه الصحف الأسـبوعـية وهذا شأنـها وتلك أرزاق أصحـابها تكيل المدح جزافـا لشوقى فى كل عـدد من أعدادها ، وهى لا تنتظر حتى يظهر للناس بقـصيدة تؤثر ، أو أثر يذكر ، بل تجهـد نفسها فى تمحل الأسبـاب واقتسار الفـرص . فإن ظهرت له قصـيدة جديدة وإلا فالقصـائد القديمة المنسية فى بطون الصحف ، وأن لم يكن شـعر حديث ولا قديم فالكرم والأريحية والفضل واللوذعية ، وأن ضاقت أبواب الدعاء والاطراء فقصيدة أو كلمة ينشرها شاعر آخـر فيستطال عليه بالشتم ويعير

بالتقصير عن قدر شوقى والتخلف عن شأوه . وهكذا حتى برح الخلفاء وانهتكت الدسيسة . والعجب أن يتكرر هذا يوما بعد يوم ويبقى فى غمار الناس من يحتاج إلى أن يفهم كيف يحتال شوقى وزمرته على شهرتهم ومن أى ريح نفخت هذه الطبول .

وشرفاء الناس كافة يتبرأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة ويعلمون أنها آفة وأى آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقيمها وتقعدها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصرى وصمة ، إلا شوقى . فإنه يعتدها آلة شرف وأحدوثة حسنة فهو يغمس نفسة فى تقريظها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى أن ينصب عجاجات من أوباشها للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية فى مثل ثروته بصر به يمد يده بالسلام الخفى لأولئك الأوباش فى خلوة من خلواته لرآها نقيصة يخزى لها ويود أن تكتم عليه . ونقول فى مثل ثروته اكتفاء بعزة العرف ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية وشمم أفذاذ العبقرية . فأما أن تكرم البطالة كما تكرم جلائل الأعمال ، وأن يدعى الناس إلى المحافل لحمد التسول كما يدعون لحمد الاحسان والمروءة وأن يتنادى إلى الاحتفاء بناهشى الأعراض كما يحتفى بمهذبى الارواح وهداة العقول ، وأن يؤيد نفاية المجتمع وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وأفراد العصور ، فتلك الهاوية التى لا يبدو قرارها . . . ووا خجلة مصر !! من الذى يصنع ذلك فيها ؟؟ شعراؤها - الشعراء فى كل مصر عشاق المثل الأعلى وطلاب الكمال

الأسمى لا يرضون بما دون غاية الغايات مطمحا لاعجابهم وقبلة لتزكيتهم . ونحن هنا يزكى شعراؤنا من يعد رفق السجانين بهم ضعفا، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما، واتساع المجتمع لهم رزءا . . . إلا أنه والله للعار وشر من العار . ولقد استخف شوقى بجمهوره واستخف واستخف حتى لا مزيد . ما كفاه أن يسخر الصحف سرا لسوقه إليه واختلاب حواسه واختلاس ثقته حتى يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدى بيده أجرة سوقه واختلاسه. وأقسم لو فعلها رجل فى أوروبا لما قدر أن يمكث بعدها أسبوعا واحدا فى بيئة محترمة ولئن لم يعرف شوقى مغبتها أدبا ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشرليكونن بلدنا هذا بلدا يجوز فيه كل شىء ولا يؤنف فيه من شىء ، ولا يصد المرء أن يخلع فيه عاريا إلا اتقاء طوارئ الجو وعوارض الحر والبرد . أما الحياء فلا ولا كرامة .

أن أمرءا تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندرى ممن يستنكف فى سبيل بغيته وأى باب لا يطرقه تقربا إلى طلبته . والحقيقة أن تهالك شوقى على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ورد به كل مورد وأذهله عما ليس يذهل عنه بصير أريب ، وليس المجال منفسحا للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . أما الذين لا يفقون فلا شأن لنا معهم . نقول أن تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق وقد وجد فى مركز أمكنة من قضاء هذه اللبانة إذا كان

أشبـه بملحق أدبى فى بلاط أميـر مصر الـسابق وكانت وظيـفتـه وسيلة لارتبـاطه بأصحـاب المؤيد واللواء والظاهر وغيـرها من الصحف المتـصلة بالبلاط ، فكانت لا تبـخل عليه بالتـقريظ والتهليل وتتـحاشى أن توسع صفحاتها لنقده كما توسـعها لنقد غيره . وأنت إذا قلبت الصحف القديمة رأيت فيها مئات المقالات فى نقد الأدبـاء المشهورين كتابا كانوا أو شعراء ولا ترى اسم شوقى عرضه لمثل ذلك من حمـلاتها . واستثن مقالتين أو ثلاثا بدأ بها المويلحى نقده فى صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلـسلتها ، وهذا أدعى إلى الريبة ، وكـان فى أمان شوقى وموظفين آخـرين بالبلاط هبـات محـبوسـة على أقـلام الكتاب والأدباء فكـان شوقى يوظف منهـا المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بـالأدب ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه فى الصحف ويلغطوا فى المجالس بتفضيله وتقديمه .

ولو شئنا لسـردنا أسماءهم واحدا واحـدا وأكثرهم أحيـاء يرزقون . أضف إلى هؤلاء من يمدحـونه لمشاركتـهم أياه فى العادات الخـصوصـية والمنادمات الليلية ، وهم غيـر قليل ، ومن اعتادوا أن يرتبوا المواهب على حسب الوظائف والألقـاب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشـعراء فـيقـول لك : أولهم **محـمود سامى باشـا البارودى** (لأنه باشـا عتـيق) وثانيهم **اسماعيل صـبرى باشا** (لأنه أحـدث عهـدا بالباشـوية والوزارة) وثالثهم **أحمد شوقى بك** (لأنه بك متمـايز) ورابعهم **حافظ بك إبراهيم** (لأنه أحرز الـرتبة أخيـرا) ويلى ذلك **خليل أفـندى مطران** (لأنه حـامل

نيشان) فطائفة الأفندية والمشائخ وهلم جرا كائنا يرتبونهم فى ديوان التشريفات لا فى ديوان الآداب !!! فبذلك وما شاكله اعتاد الناس أن يسمعوا اسم شوقى مشفوعا بأفخم الألقاب غارقا فى صيغ الأطناب والاعجاب . وكأنه يخشى أن ينسى الجمهور اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه إلا أن تكرر تلك الصيغ فى كل مرة يذكر فيها اسمه . ففى كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب وشاعر العرب والعجم وأمير الشعراء وسيد الأدباء ، وليت شعرى ما ضرورة هذا التكرار كله أن كان مفهوما بذاته ؟؟ ولما رسخت هذه الألقاب المأجورة صدقها العامة وأشباه العامة ومن يجاملون السمعة والوجاهة فتناقلوها ورددوها - ولم لا يصدقونها ويرددونها وأكثرهم لا يعنى من الأدب بكثير ولا قليل ، وجلهم أنما يعرفه بالسماع ويلقنه بالاشاعة ؟؟ فإن كان فى الأمر موضع للعجب فهو أن تسمع ثناء متكررا ولا تسمع نقدا - مع أن الاغراق فى الثناء أحجى أن يغوى بالمنافسة ويكثر من النقاد. ومتى علمت علة السكوت فقد زال موضع العجب .

وأظن السن قد فعلت فعلها فى نفس هذا المعذب بمرض الصيت فغلبه الشك وزاده شحا وقلقا فأصبح لا يقنعه أن يعلل بالدهان ، ويؤكد له التفرد والرجحان ، حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على الخلق قاطبة ، فلا يروى لأحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى باسم ، ولا تقرن إلى شهرته شهرة . وإلا فعقوبة من يرتكب جريمة الاجادة معروفة !! وما أطول عذابه أن لج به هذا الوسواس !! وان المحنة لتستدر الرحمة ولكن

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة أوجز ما توصف به أنها نكسة أدبرت بقائلها ثمانية قرون وكان فيها مقلدا للمقلدين فى استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك أيها القارئ شاعرا من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعا أول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكنافها ويتحرى عجائبها ويستكنه أخلاقها وشمائل نفوسها من آدابها وفنونها ، إلى أن سيق إليه صنيعة من صنائع شوقى فأسمعه أن ها هنا شاعر يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الألقاب الا لقبا مزدوجا ، فهو أما شاعر الشرق والغرب أو شاعر الأرض والسماء أو شاعر الأنس والجن أو شاعر الأقدمين والمحدثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين – إلى اشباه هذه الألقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتفق ذلك لأحد كائنا من كان فى العالمين : وقد تعلم أيها القارئ أن أذكياء الغربيين وخاصتهم لا يألفون الأطناب والتهويل ، وأنهم يقدرون أعجابهم ويزنون كلماتهم فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الأقدمين والمحدثين عندهم بله الأنس والجن والأرض والسماء ، وأن كان لاحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يقلب دانتى أو هوجو أو جيتى بشاعر أوروبا وان كان لكلهم

من شيوع صيته وقدم أيامه وكثرة المعجبين به وتداول طبعات كتبه - مسوغ لهذا اللقب . فلابد أن يلمح الشاعر الغربى فى تلك الصفات التى سمعها مغالاة وشططا . بيد أنه يجب أن يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية وأن يعرف المعانى والمثل العليا والخيالات التى إذا نطق بها الشاعر وجد فى مصر من يمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وأن يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعى ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هى قصيدته فى استقبال أعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجبا فيقول: «تحول بقلبك عن الطريق وانج من جماعة الظباء السائرة فى الرمل ومن جماعة الظباء . .» وهو ترجمة قول شوقى :

اثن عنان القلب واسلم به   من ربرب الرمل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظانا أنه من مقتضيات التنبيه والتحذير كما يقال «النار ! النار» و «الحصان ! الحصان» إلا أنه يتوهم أن فصائل الظباء والايائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم فى هذا الجانب من الأرض فيتقونها ويهربون منها لضرواتها عرامها . ويود لو يرى هذه الأوابد الأفريقية فما هو الا أن يسأل صاحبه فى ذلك فإذا الجواب حاضر يلقى إليه بابتسامة الأستاذ لتلميذه الجهول : «كلا : كلا : ليس فى بلادنا ظباء مخيفة ولا أليفة - ما إلى هذا قصد شاعرنا ، وإنما هو يعنى النساء» .

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟؟ يسأل الرجل مستغربا فلا تتغير ابتسامة صاحبة المترجم ويجيبه : «نعم نساء . فاننا نشبه المرأة بالظبية اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الظبية الكحلاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية» .

نقول: ولا يبعد أن يرتضى الشاعر الغربى هذا التشبيه على أنه منقول عن العرب وربما قال بشئ من التهكم : «حسن تشبيهكم هذا ، ولكنى لا أدرى لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحلاء ، ولم تكون شوارع مصر تلولا أن كان لابد أن تكون حسانها ظباء ووعولا ؟؟» ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه : «اذن فصاحبكم عاشق يتغنى!» .

وما أشد ما تكون دهشته إذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد عنقه كمن لا يرى داعيا لذاك الافتراض : «ولماذا ؟؟ أن الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الأقدمين» .

فيفاجأ الرجل ويجد أنه قد أحال غير قليل على تباين الأمزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضا أن يحيل التقليد فى الغزل على اختلاف الخلق وتفاوت التركيب ؟؟ ولئن صح ما ترجم له ولم يداخله شك فى نهضة الأمة ليكونن اذن بين فرضين اثنين ليس واحد منهما بجائز فى العقول : فأما أن الشرقيين ركبت قلوبهم وأشرجت شهواتهم بحيث إذا أحب السلف العربى أتى الخلف المصرى متغزلا بعد عدة قرون . . . وهو مستحيل . وأما أن هؤلاء الشرقيين يعيشون فى أبان

نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض أحدهما ويحيا ويموت الآخر حتى ما يحس أقوى خوالج النفس وأعنفها وهى غريزة العشق الجنسى . وما خلق الله لامرئ من قلبين فى جوف واحد .

على أنه يجنح إلى حسن الظن ويخيل إليه أنه أخذ يفهم بعض الفهم ويقول لمترجمه : «أخالنى قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا» فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسرا : « أن الغربيين كما يتسلون أحيانا بلبس ملابس الرومان واليونان الأقدمين أو يتزيون بزى الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم أن يتسلوا باحتذاء أسلوب الشعراء من الأمم النازحة والأجيال الغابرة . رياضة وتفكها لا جدا والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لا يعد من جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه أنه رياضة مقبولة » .

فيفغر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات يحسبها احاجى والغازا . ويظن أنه يذب عن شاعره المزدوج الألقاب حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب بالغرب من نظم القصيدة وأن قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضا وأنما نظمها فى مستقبل أمة ناهضة . . وتحية لزعمائها . .

إلى هنا ينتهى العجب باليقين - فان كان الرجل قد ارتضى التقليد فى التشبيه والغزل واغتفر نقض المدينة العامرة يبابا وقلب الشوارع الممهدة

هضابا ، فمن وراء عقله أن يرتضى استهلال الكلام فى نهضات الأمم بالغزل صادقا كان أو مستعارا ، وأن يفهم الابتداء بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلاء ، تمهيدا للثناء على مآثر العظماء ومناقب الزعماء، وأن يئن ويتوجع ، فى حيث يفخر ويترفع ، وأن يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصح والاهابة ، فذلك ما لا يقبله تفكيره ولا يذهب إليه تخمينه ، وأن اعوزته دلائل الحكم على منحى أفكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا فكفى بما سمع برهانا يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج أن يظلم أو يتجانف ، ثم لا يكون بعد ذلك الا معذورا .



ونحن لم نمثل فى الحديث المتقدم بشاعر غربى لأن فهم هذه البسائط وقف على الغربيين ولكن ليسهل على الذين تغيب عنهم بساطتها أن يفهموا على أى وجه تلوح غثاثات التقليد لمن خلصت عقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مجرى القواعد المصطلح عليها . والا فأى انسان تجرد من الانخذاع بالتكرار وخلع ربقة التقليد لا يشعر لأول وهلة بالخلط الشائن فى هذا الضرب من الشعر ؟؟ ما الشعر الا كلام فأن كانت له ميزة على الكلام المبتذل فميزته أنه أجمل وأبلغ وأحسن وضعا للمعانى فى مناسباتها . فهل يتكلم الرجل فى السوق والبيت فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام وتقدير الحوادث الجسام ، حتى إذا تهيأ للشعر لم يخجل أن يخلط فى قصيدة واحدة بين أبعد موضوعين عن الانتظام فى

نسق واحد ؟؟ فلو أنه كان صادقا فى عشقه لقبح منه ذلك ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاعته بين الملأ ، فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان !!



لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لا يقيم الا على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نؤى تهيج ذكراه ، ومعاهد صبوة تذكى هواه ، هجيراه كلما راح أو غدا حبيبه يحن إلى لقائها أو صاحبة يترنم بموقف وداعها . فإذا راح ينظم الشعر فى الأغراض التى من أجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة ثم تقدم بين يدى ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء إلى ملوك الحيرة وغسان وفارس وينتجعون الأمراء والأجواد فى أقاصى بقاع الجزيرة يحملون إليهم المدائح يبدأونها أحيانا بوصف ما تجشموه فى سبيل الممدوح من فراق الأحبة وألم الشوق وطول الشقة وأحيانا كانوا يصفون الناقة التى تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظمأ والطوى ومواصلتها الليل بالنهار سعيا إلى الممدوح كناية عن الشوق إلى لقائه ، وكان الغرض فى الحالتين واحدا وهو تعظيم شأنه وتكبير الأمل

فى مشويته ، فكان الابتداء بالغزل ووصف المطى فى قصائد نظمت فى المديح وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة لا يعد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج إلى النموذج والأستاذ فأقاموا المتقدمين أساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لايبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لايزالون يفدون على الأمصار فينهجون نهج أسلافهم مطبوعين أو مقتدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع فى هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الأدباء إلى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدما حسنا فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول وأفرد كثيرا من الغزل فى قصائد قائمة بذاتها وأشهر هؤلاء أبو نواس. ومنهم من كان يفتتح. مدائحه بالنسيب ويتجنب ذلك فى العظائم كما صنع أبو تمام فى بائيته المشهورة التى مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفى رائيته التى أولها . .

الحق أبلج والسيوف عوار　　　فحذار من أسد العرين حذار

وكما صنع المتنبى حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه إلى الروم فقال مفتتحا :

ذى المعالى فليعلون من تعالى　　　هكذا هكذا والا فـلا لا
حال اعدائنا عظيم وسيف الد　　　ولة ابن السيوف اعظم حالا

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من أرض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الرأى قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهى المحل الثـــانى

وكما صنع الشريف واضرابه فى كثـير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار أو انعدم ونشأ من شعراء الحضر جيل كان أحدهم يقصد الأمير فى المدينة وأنه لعلى خطوات من داره فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة مايذكر من الفلوات التى اجتازها والمطايا التى أنضاها وحقوق الصبابة التى قضاها . وكـان الواحد من هؤلاء يزج بـغزلة فى مطلع كل قـصـيدة حـتى فى الكوارث المدلهمة والجوائح الطـامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون. والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المديح بمطالعـه ومقاطعه وتفتحت للقـول أبواب لم تخطر لأحد من المتـقدمين على بال . . ، يجئ شـوقي فيتماجن ويتصابى فى مطلع قصيدة يتنظر بها مستقبل أمة ويقول فيها :

قد صارت الحـال إلى جدها   وانتبـــه الغـافل من لعـبـه

ويجئ أناس ممن طمس الله على بصـائرهم فـيقـولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين أنه مجدد وأنه عصرى بل أنه شاعر العصر .

وهل تعلم ما الغزل الذى استـحل لأجله اتيان هذه المجانة والعبث؟؟ فقد يكون له عذر الاجادة لو كان مبتدعا فيه أقل ابتداع وأن حق عليه اللوم لوضعـه فى غير مـوضعه - ولكنه هو الـغزل الرث الذى ليكت معـانيه وأوصافـه ولم يكن للنظامين والشعارير بضـاعة غيـر ترجيعه منذ عـشرة قرون . فأى سـوقه من صعاليك الوزانين لم يغـسل رجليه فى وعاء هذه

المعانى التى نضج بها شعر أمير الشعراء ؟؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعى العروض لم يقل فى وصفه : «قد يثنى كالبانة» «أرداف مرتجه كالكثبان أى كأكوام الرمل» «خد كالورد» . «حسان كالأقمار أو كالنجوم» . «مشية كمشية القطا» . «عينان لهما سحر هارون وماروت» «ظبية الرمل» إلى بقية تلك الكناسة الشعرية المنبوذة . وهذه هى روح العصر فيما يحدسون !!

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته إلى موضوعه . فأما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التى نشرتها الصحف يومئذ لولا أنها متناقضة متدابرة وأنها خلو من الأسباب والحجج التى بنى عليها الكاتبون رأيهم وأما الكلام الشعرى فيه ففى بيت القصيد أو بيتيه وهما :

قطارهم كالقطر هز الثرى — وزاده خصبا على خصبه
لولا استلام الخلق أرسانه — شب فنال الشمس من عجبه

وأنه لأليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح، ولو كان للشاعر فضل فى التناسب المحكم بينهما لكان أشعر الشعراء ولكن (مكره أخوك لا بطل) .

ولا أسهب فى التعليق على البيتين ولكنى أروى مشاهدة يتبين منها القارئ مبلغ ما يفعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ، وأن فى الأطفال اللاعبين خيالا أفطن وتمييزا أصفى من شاعر يعكف على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة .

بين أشرطة الصور المتحركة ولاسيما الأمريكية منها مناظر خاصة لاطراب الصغار وجلب المسرة إلى قلوبهم . ومن أشدها غرابة المطاردات الجامحة التى تجرى فيها خوارق العادات فتتحرك الدوز والجواسق وتتطاير الكراسى والأوانى . وهى كثيرة لا أظن زائرا من زوار الصور المتحركة لم ير واحدا منها - حضرت منظرا من هذه المناظرة فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يعدو ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر والهجوم والمراوغة إلى أن وثب الهارب فى منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه فى سيارة فوثبت به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق فى الملعب طفل لم يستفزه العجب فيثب ضاحكا . وما أخالهم إلا كانوا مصدقين ما يرونه وانما ضحكوا لأن المنظر مضحك على كل حال . . . فليت شاعرنا الكبير الذى قرع أبواب الخيال نيفا وثلاثين سنة حضر يومئذ فسمع ضحك الأطفال من سيارة تطير فيعلم أن طيران القطار بقاطرته ومركباته فى الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل أن يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى الطار شابا فوق الرءووس فى طريقه إلى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وآرساته يمنعونه ويكبحونه - لغلب حذره من الاستهزاء على ولعه بالاغراب ، والأمر بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة السذج ولولا أنهم يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعب بينهم رقية كهذه الرقية الهزلية : «الحمد لله الذى لم يخلق للجمال أجنحة فكانت تطير فوق بيوتك، إلخ إلخ » .

أما أن القطار كالمطر يزيد الثرى خصبا على خصبه فتشبيه لا أصل له . لو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأى قرينة من القرائن أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من المنفعة . على أنه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار والقطر غير التجانس فى الحروف . وهكذا تتعلق أشعار المقلدين بالحروف والألفاظ لا بالحقائق والمعانى . وشوقى كما قلنا فى أول المقال مقلد المقلدين .

النشيد

ربما كنا فى غنى عن نقد هذا النشيد إذ كنا لم نلق أحدا يتقبله ويحله المنزلة التى أحلته فيها لجنة الأغانى والألحان . فان المنا به ألماما فى طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهى توقيف بعض القراء على قيمة أحكام اللجان ، وأنها فى أكثر الأحيان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والأدب فى مصر فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . أما فى أوروبا فربما بلغ من تهاون الأدباء بشأنها أن يطبع أحدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض «لم تجزها جامعة كذا» كما صنعوا برسالة شوبنهور التى كتبها فى الأخلاق وقدمها إلى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت سقطة الأبد .

تصدت لجنة الأغانى للحكم فى أناشيد الشعراء وأولت نفسها هذه الكفاءة - وأنها لكفاءة تتطلب الاحاطة بأشياء جمة قل بين أعضاء اللجنة من يعد ثقة فى واحد منها . فمن شروط الحكم فى الأناشيد القومية أن يكون عارفا بالشعر ، خبيرا بتوقيع الألحان على المعانى ، مطلعا على أناشيد الأمم ، بصيرا بأخلاق الجماعات وأطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الرأى والعدل والجهل بأسماء من يحتكمون إليه . فهل بين أعضاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟؟ أننا نعرف من بين

أعضائها أناسا نجل ذكاءهم ونكبر فضلهم في علومهم ونراهم أهلا للحكم في أعضل المشكلات التي تفرغوا لدرسها . بيد أن التفوق في شئ لا يفيد التفوق في كل شئ . وإذا علمت أن الرجل من الاخصائيين يقضي العمر في فنه باحثا منقبا ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطئ ويبرم اليوم ما نقض أمس ، فأحر بك أن تعلم مبلغ أعتصامه من الخطأ فيما يتفرغ له ولم يدع الحذق . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل إلى انكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق أن بعض أعضاء اللجنة عرفوا في الجلسة وقبلها نشيد شوقي المقدم إليها غفلا من الأمضاء ، لا ندرى لم تكلفوا أغفال اسمه ورأوا ذلك شرطا ضرورياً لنزاهة الحكم ثم سمحوا لأحدهم (الأستاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر في الجلسة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميل من أكثر الأعضاء إلى رفضه ؟ بل لا ندرى لما أرجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعد وتمهلت حتى يتم شوقي نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيدا ؟؟ أمن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع أنشودة واحدة ؟؟ ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين في احدى الفرق يلحنونه ويروضون أنفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الأوراق وترسل الدعوات وتستقدم أعضاءها للنظر في أناشيد مجهولة ، وأسرار مكتومة ؟؟ فهل سعى النشيد وحده إلى دار التمثيل ؟؟

ومما نذكره أن اللجنة لفرط برها بشوقي وحرصها على اختيار نشيده

قبلته على ما فيه من مآخذ وعيوب ، نبه إليها بعض الفضلاء ، وردته إلى صاحبه ليجتهد فى اصلاحه قبل اذاعته من قبلها ـ وذلك أن عضوا عاب قوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعـز ركن
ليس لكم بوادى النيل عدن ؟؟ إلخ إلخ

وقال أن البيت الثانى منبتر ، وسأل : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والنيل بالكوثر ؟؟ فوافقوه على انتقاده . وانكر بعضهم تأليف البيتين الآتيين ومغتاهما :

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفنا الصليب على الهلال
واقبلنا كصف من عوال يشد السمهرى السمهريا

فانتقدوا قوله «ملة ذى الجلال» ونقل إلى أحدهم قال : أننا نجعل مصر وطنا يشترك فى حبة أبناؤه ، وأما ملة ذى الجلال فهى الملة التى يدين بها كل انسان بينه وبين ربه «ذى الجلال» وهو انتقاد سديد فاننا أن سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الإسلام والمسيحية واليهودية ؟؟ إنما يقال اتحدوا فى الوطن واتركوا الدين للديان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا قوله «الفنا على الهلال» ولا ذكره السمهرى ، وقال آخر أن عبارة «كصف من عوال» أفرنجية التركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا نجعل تبعته . ويظهر أن الناظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع

المحافظة على المعنى فأصلح بيتا واحدا وترك البقية على حالها . أصلح هذا البيت .

نموت إليك مصر كما حيينا ... ويبقى وجهك المفدى حيا

وكانوا قد أخذوا عليه قوله «نموت إليك» لأنها لم تسمع فى كلام صحيح فلم يستطع أصلاحها بأحسن من أن يقول «نموت رضاك مصر إلخ» - وقد نشر كذلك فى صحيفة الأخبار - فلم يقتنعوا . فجعلها أديب فى النسخ الأخيرة «نموت فداك» فاقتنعوا !!

ونذكر أيضا أنه كان بين المحكمين أعضاء من المغنين والعوادين جئ بهم ليحكموا فى أى الأناشيد أصلح للفخر القومى وأشد اعتلاجا فى النفس وابتعاثا للحمية ومطابقة لنفسية الأمة !! وليديروه فى اللحن الذى يثبت القلوب الخائرة وينهض بالهمم العاثرة ويسمعه ألوانى فتضطرم نفسه عزما ، واليائس فيهجم إلى الأمل قدما ، والعدو فيتضعضع قلبه رعبا وغما . . وليكون اللحن صوت الأمة فى سمع التاريخ ونحوها فى المواقف والأزمات فانظر أين ذهبوا بهؤلاء المظلومين هل تعلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق بلسان النفس يائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ، وصارخة ومبتهلة ؟؟ وهل فيهم من يروى بأنغامه عن جلال الحياة وجمالها وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغى أن تكون الموسيقى ؟؟ لقد علم كل إنسان أن ليس فيهم من يفهم الموسيقى على

هذا المعنى ولكنهــا أصــوات الذل والضراعــة والحان يــنشدها النائم فــلا يستيقظ ويسمعها الصاحى فينام .

ثم نذكــر تبرع شوقى بــالجائزة لنادى الموســيقى . وكــان هذا وعده المعروف ولو أنه لم يعد لما دار بخلد أحــدهم أنه على غناه يطمع فى مائة جنيه يحتــجنها لنفســه فكان يهم الأعضاء أن يفــوز هو بالجائزة الموعودة ، وجلهم من أعضاء نادى الموسيقى ، والنادى بحاجة إلى اعانة المتبرعين .

ولا ننس أن اللجنة حكــمت المويلحى ، وهو رجل تصل إليــه هدايا شوقى . على أنه تخلف عن الحضور فاضطروه إلى ارسال رايه اضطرارا . وحكمت حــافظا وقد عرف اصــحابه أنه يتــقى أن يرمى بالحســد أن أوما بالنقد إلى قرينه . ومن غرائبه أنه كان ينحى على النشيد فى الجلسة وقبل اجتماع الأعضاء فلما أعلن الأستاذ عبد الحميد بك اسم شوقى سكت .

وعلمنا غير ما تقدم أمورا لا نحــب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل على هوى اللجنة فــى جمــلتها . فلنعد إلــى النشيد غيــر آبهين للحكم لــه أو عليه ، وليكن قياسنا اياه أن نلتمس فــيه أبسط الخصال التى هى قوام كل نشيد ولا يجوز أن تخلو منها الأناشيد القومية .

يشترط فى النشــيد القومى قوة العبارة وسهــولتها وأن لا يكون وعظا بل حماســة ونخوة وأن يكون موضوعــا على لسان الشعب وموافــقا لكل زمان . وهذا أبسط ما يــطلب فى أناشيد الأمم . فهل نشــيد شوقى على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط أو بعضها ؟؟

فأما قوة العبارة فليس فى النشيد بيت يدب له الدم فى عروق منشده. وكل مفاخرة أفرغت فى قالب هو أقرب إلى الأخبار منه إلى الحماسة . وأقواها قوله :

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالى نماما أوائل علموا الأمم الرقيا

وليس فى هذين البيتين من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس ، وليس فيهما قوة لا تجد مثلها فى قول من يقول «كان لى بيت سعته كذا من الأذرع . بابه على النيل ، وضوء الشمس يغشاه من جميع النوافذ ، إلى آخر أوصاف المساحة . . » فأى فرق بين قص المعلومات والحماسة اذن ؟؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه تم عن أعنات المقيد المجهود فخففت فيه ثلاث همزات تخفيفا معيبا واستعصى الوزن ووالقافية على صاحبنا حتى صير «سئلت» سيلت و«تهيأ» «تهيا» و «شيئا» شيا : نعوذ بالله من الشى .

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه :

بنى مصر مكانكم تهيا فهيا مهدوا الملك هيا
خذوا شمس النهار له حليا الم تك تاج أولكم مليا
على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن
اليس لكم بوادى النيل عدن وكوثرها الذى يجرى شهيا

فـمن الذى يأمر المصـريين هنا ويناقـشهم هـذه المناقشـة ؟؟ آأجنبى يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟؟

ولقد اسـتوطأ شوقـى مطية الفلسفـة والمواعظ بعد أن ركب حـمارها ببيت واحد سوقى المعنى وهو قوله :

وانما الأمم الأخـلاق ما بقـيت   فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فراح يجرى عليه ذهابا وايابا فى كل مكان ومـقصد . حتى طلع لنا بأذنى حمـاره الفلسفى هذا فى مـوعظته «على الأخـلاق خطوا الملك» ولم يجد على البـاب من يقول له : يمينك أو شمالك . . فكأنمـا كان شوقى على رهان أن يخالف قواعد الأناشيد مـا أمكنه ، وكأنما لهذا أحرز السبق لا لأن نشيده كان كمـا وصفته اللجنة «أكفاها وأوفاها بالغـرض وأجمعها للمزايا التى ينبغى أن تتسق لنشيد قـومى مصرى» فأنه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من كل شرط يتسق للأناشيد لما عرفنا كيف كان يسبق فى هذا المضمار .

وفى المقطوعـة الأولى خطأ تاريخى ما أظرفـه فى نشيد أمـة تفتـخر بتاريخها القـديم فإن الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شـاعر مصر وانما كانت مـعبودا لهم وكـانوا يزعمـون أنهم من سلالتهـا . وأما تاج الفراعنة الأول فـهو تاج مزدوج جمعـوا فيه بين تاج ملوك الصـعيد وتاج ملوك الوجه البحرى ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة الأولى فى المدارس الثانوية . ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا يحلونها بصور الطيور

المعبودة أو التى يرمز بها إلى العبادات ولم تكن الشمس قط حيلة لهذه التيجان . . فياحبذا النشيد تتغنى به أمة فيكون مطلعه عنوانا على جلالها بتاريخها .

ولايكلفنا القارئ أن نأخذ على شوقى مبالغته فى قوله : «خذوا شمس النار له حليا» فإننا لا نحاسبه على كلمة له فيها وجه تأويل .

وأما الموافقة لكل زمان فإننا نرى الرجل قد حسب أننا سنظل طوال الدهر كدأبنا فى يومنا هذا ، فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به فى جميع العصور أن يتهيأ مكاننا . وأن لا نبرح نشرع فى التمهيد ونأخذ فى الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الأركان . وما علمنا شاعرا قوميا يطلب إليه أن يكون فأل الأمة وهاتف مستقبلها فينعب فيها نعيب النحس وينذرها جمودا لا تتزحزح منه أو تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقى بالمواقف من قصائده الآنفة ، وأجهل ما يكون هو إذا وقف موقفا وطنيا أو قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعشا البصيرة أن يكلف «ابن بجدتها» أنشاء دعاء قومى ، أى دعاء لا يعوقك دين من الأديان أن ترتله فى البيعة أو تشدو به فى الكنيسة أو تصلى به فى المسجد ، فيخيل إليه أنه إذا جمع فروق الأديان كلها فى جملة واحدة فقد أتيح له هذا الغرض . فيستشفع فى دعائه المعروف «بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبى الحق» فيكون ماذا ؟؟

يكون أن الإسرائيلى يحرم هذه الصلاة فى بيعته لأنه لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد - وأن المسيحى لا يدعوا الله به فى كنيسته لأنه على احترامه دين مواطنه المسلم لا يعتقد النبوة الإسلامية ، ولأنه يدين بربوبية المسيح لا برسالته فحسب وأن المسلم يصلى به وحده فكأنه لم يشر فيه إلى دين غير دينه ، وأن الدعاء القومى لا يكون دعاء لأحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو أن طاهيا صناعته تجهيز الموائد قيل له أن ثلاثة من المدعوين فى الدار ليس يشتهى أحدهم طعام الآخر ، فعمل على أطعامهم جميعا بمزج أطعمتهم كلها فى صحفة واحدة لطرد من فوره فاعجب لشاعر قوم يغفل حيث لا يغفل الطهاة ويغرق فى غفلة الذهن حتى أحسبه أحيانا يتعمد الأمعان فيها ويطرقها من الباب الذى يفضى به إلى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصاه ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد أن خطر له أن يجمع شفاعات الأديان أجمع كى تكون شفاعة لكل دين ، عمد إلى لصق الأنبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذى لا يناسب هذا المقام ، والذى لو كان هو وصفه الفذ لا سواه لوجب السكون عنه هنا . وصفه «بالهارب من الرق» فهل يدرى شاعر مصر من رق من هرب موسى ؟؟ أنه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به !! وقد نجد فى خفراء الريف كياسة تمنعهم أن يطلبوا الاقالة بما يذكر بالذنب . أو يتوسلوا إلى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقى ونشيده كـلاهما معيار لتعبيره عن المعـارف القومية فلا هو فى الشعـر ولا فى النثر شـاعر قـومى موفق العبـارة : وقد قـرأناهما لتشابه الخطأ فـيهما وربما كان خطأه فى النشـيد أخف وأهون ، من حيث أن الأناشـيد لا يصلى بهـا فى المسـاجد والكنائس ، لا من حـيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيـد أننا لا نرى معنى لزج الأديان فى الأناشيد الوطنية ، فقد كان يكون أدل على الوفاق أن لا نجعل وفاق الأديان مباهاة ومأثرة ، لأن المرء يباهى بالشئ النادر أو غير المنتظر وهذه الأمم المتحضرة والمتبدية أليس فيهـا مذاهب مختلفة وعناصر متعـددة ؟ فما بالها قد خلت أناشيدها من ذكر الدين ؟؟ أتراها لا تحب أن يكون الوفاق شعارا لها .

ولقد قدمنا أننا لا نقـصد إلى الافاضة فى نقد النشـيد ، فكنا نقارنه بما نعلمه من الأناشيـد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فـيها وموضع التقصير فيه . أما وقد أخـذنا من مساوئه ما أخذنا فليس يسعنا أن نهمل مأخذا سـمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عـرض النشيد للتلحين : ذلك أنهم يستقبحون تلحين أحدى مقطوعاته وهى هذه :

تطـاول عـهـدهم عـزا وفـخـرا

فلـمـا آل لـلتـاريخ ذخـرا

نشأنا نشأة فى المجد أخرى   إلخ إلخ

ويقولون أن التنوين لابد أن يسـقط فى الانشاد فيخلفـه المد وترجيع

الصوت فإذا انتهى المنشد مثلا إلى كلمة «فخرا» ومد بها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد فى موقفه والملحن فى صنعته .

نقول : هذا هو النشيد الذى «يبقى لحركة هذه الأمة شعارا ، ويتخذ للحواديث الوطنية على وجه الزمان منارا» كما تقول اللجنة - نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقرأه أحد فيما علمنا الا عجب من تفضيله على النشيد الثانى ومن اجتراء اللجنة على تقديمهما معا إلى الصحف غلوا منها فى استجهال الناس ومبالغة فى احتقار رأيهم. ولا أخفى عن القارئ أننى ما كنت أظن فى جمهور قراء الأدب استقلالا يقاوم تآمر المحكمين والصحافة وسماسرة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك فى حكم اللجنة ونزوعا إلى احلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشيدين المنشورين ، وفى هذا الاستقلال أمل نغتبط به ونحمد بشائره .

عباس محمود العقاد

النشيد القومـــى

رأينا أن ننشر هذا النشيد بعد ما كتبناه عن نشيد شوقى ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذى يخشاه شوقى من التفات الأذهان إلى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر بعد شيئا من شعره للقراء وشوقى يملأ طباق الأرض باسمه كل يوم منذ نيف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشيدين لا يخفى على أحد . وقد أتصل بنا أنه كان ثالث الأناشيد التى اختارتها اللجنة فإذا حسبنا للمحاباة حسابها جاز أن نقول أنها حكمت بتفضيله على نشيد (كبير الشعراء) ويرى القارئ التفاوت بين النشيدين حتى فى الخصلة التى اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب هنا أشبه بمناجاة النفس وهى فى نشيد شوقى مخاطبة أجنبى معتزل للشعب الذى يناديه . وهذا هو النشيد :

يا بنى النيل وأحفاد الألى — أطلعوا الفجر لتاريخ قديم

رفعوا الأهرام والعالم لايبتنى — الا خصاصا من هشيم

أذكروا أن ثرى هذا البلد — من مجانيد الجدود العظماء

لا تطئها أرجل العادى الألد — وبكم أبناءهم بعض الدماء

تربها التبر المصفى المنتقد — لا الذى يقنى الشحاح الأدنياء

فـامنعـوا كنزكم أن يبـذلا　　أو تعيشوا عمركم عيش عديم

لن تـروا فى الأرض عنـه بدلا　　مـا لكم كنز سـوى هذا الأديم

*

اذكـروا أن عليكم واجـبـا　　لبنـينا فى بـطون الأعـصـر

فاحـفظوا هذا التراث الواصـبا　　فـهـو حـق الوارث المنتـظر

نتـقاضى الأرث عـصرا ذاهبـا　　فلنـصنه للعـصـور الأخـر

سنـؤديه إليـهم أكـمـلا　　لم يغـيـره زمـان أو خـصـيم

فـحمى مـصـر تحامـاه البلى　　وبنوها خير مـن يحمى الحريم

*

أذكروا حـاضركم كـيف يقام　　ليس يغـنينا تليـد القـدمـاء

ما التـماثيل المهـيبات الجسام　　وأبو الهـول رهين الصحـراء !

مـا المسلات على باب الرجـام　　والنواويس وفـيـها المـوميـاء !

مـا عظيم تـالد من العـلا　　فى ثنايا حـاضر غيـر عظيم !

فاجـعلوا عـهد العـلا متـصلا　　كاتسـاق الدر فى العقد النظيم

*

اذكـروا مـهمـا بلغـتم سـؤددا　　انكم لـم تبـلغـوا أوج الكمـال

ابعـدوا فـوق المنـال المقـصـدا　　فبنو الشـمس لهم أقصى المنال

كم عبدنا قرصها المتقدا فاتقدنا فى حماس ونضال
نبتنى الهيكل يتلو الهيكلا خالدا فى ساحة الرمل مقيم
وسيبقى موطن الشمس إلى يوم لا يبقى لها قرص ضريم

*

اذكروا أن التفانى والغلاب فى سبيل المثال الأعلى البعيد
نفثا فيكم وأنتم من تراب شعلة غراء من معنى الخلود
شعلة تجلو عن الحق الحجاب وتصفى النفس من رجس الوجود
فاضرموا فى النفس هذى الشعلا أضرموها تكفلوا الفوز العميم
مثلما أضرمت النار على مذبح الرب بمحراب كريم

*

أذكروا ذلك وامضوا قدما لا تكن واجهتنا غير الامام
تزدجينا دقة القلب كما يقرع الطبل لجرار لهام
فنسوغ الموت ذودا للحمى ونذيل العمر سعيا واعتزام
فبحق نحن أحفاد الألى اطلعوا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الأهرام والعالم لايبتنى الا خصاصا من هشيم

عبد الرحمن صدقى

صنم الألاعيب (١)

شكرى صنى ولا كـالأصنام . ألقت به يد الـقدر العـابثـة فى ركن خـرب على سـاحل اليم - صنم تتـمـثل فيـه سـخـرة الله المرة وتهكم «ارستـفانيز الـسمـاء» مبدع الكائنات المضـحكة ورازقها القـدرة على جعل مـصابهـا فكاهة الناس وسلوانهم . و - لم - لا يخلق الله والمضـحكات وقد آتى النفـوس الأحساس بها وأشعـرها الحاجة إليهـا ؟؟ ولم يلتزم فى الإنسان مالا يتوخى فى سواه من وزن واحد وقافية مطردة ؟؟

هنالك إذا على ساحل البـحر شاءت الفكاهة الالهيـة أن ترمى بهذا الصنم . وكأنما أرادت أن تبعث على تدبـر القدرتين : هنا ثبج مزيد وأبد لا يحد ، وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد ، وحيـاة متجددة وأواذى متوثبة متولدة - وههنا نفس خامدة وقوة راكدة وجبلة باردة جامدة . لا تمتد يدها إلى الثمار تهـدلت بها غذبات الأشجار ، ولا يملأ صـدرها حسن الآصال وروعة الأسحار . ولا يستجيش الحياة فى عروقها منظر الكمائم تتفتح عن آنق الأزهار ، أو الغمائم ترسم فى صفحـة السماء المقلوبة أبهى الصور أو الخضرة فى مستهل الربع تكاد العين «ترى» ذيوعـها وانتشارها بل «وثبها» من شجرة إلى شجرة ومن عود إلى فنن حـتى تعود الحقول إلى آخر مدى

البصر بحرا مائجا من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر فى الصباح البليل وقد أثقلت أكمامه الانداء فتساندت رؤوسها كأن سربا من العذارى على الماء بوغتن فتزاحمن تحت ثوب أبيض .

كلا ليس فى كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك هذا الصنم لأن باطنه شاعت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس بنفسه وصار لا ينقذه منها ومما منته به من صنوف البلاء إلا أن تهدمه فؤوس الكاشفى طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول لم يرفع عنه فقد ولد ميتا ولم يجد نور الحياة وحرها ولا أغنيا عنه من جمود طبعه شيئا وأن كان وهو ملقى بين أنقاض حياته يتوهم أنه ملهب الموج بسياطه ومدير الأفلاك بتدبيره وحكمته . يقول كلما أعجبه شكله أو حاله أو آثاره نبذه وأهماله «أنا اله الشعر» فتلطمه الريح وتدحرج ثقله على افريز البحر وترميه الأمواج برش من سخرها وتسك أنقابه برعد من ضحكها فما أجله من اله يتضاحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس العذر إذا كانوا أسلم فطرة من أن يكترثوا لدعى أخرس لا ينطق ولا يبين وإذا تركوه غارقا فى طوفان من الأوحال النفسية مدفونا فى قبر من بكمه العجيب . وأى بكم أعظم مما أصيب به هذا المنكود الذى لا يكفيه أن يدعى النطق حتى يريد أن يكون شاعرا ونبيا فنيا ورسولا بدين هداية فى الأدب ؟

وأنت أيها القارئ قد تعلم أن سر النجاح فى الأدب هو علو اللسان وحسن البلاغ وقوة الأداء وأن على من يريد أن يشرح دينا جديدا

«لأطفال» هذا العالم أو أن يحدثهم بما أحب أسلافهم فى سالف الزمن أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه أن يذكر أنهم لم يتعلقوا به بعد ولا استطعموه فاسمرأوه وأنه لكى يغريهم به ينبغى له أن يتوخى القوة فى العبارة عما يريد فان الناس خليقون أن لا يؤمنوا إلا بمن عمر صدره الإيمان .

وقلما ظهر كاتب أو شاعر الا بالأداء وكثيرا ما يمتاز بعض الكتاب وتخلد آثارهم لما أوتوه من القدر على أجادة العبارة عن آراء غيرهم كأبى اسحاق الصابئ كاتب الملوك والأمراء وأن كان لا محل لهم بين المفكرين وأصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة محور انقلاب فى تاريخ العقل الإنسانى والذين يستطيعون أن يستغنوا إلى حد ما عما لا مسمح للأديب عنه . وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الذهن المشبوب والعواطف الذكية تكون الحاجة إلى ضرورة فن الأسلوب .

ولعل هذا أكبر الأسباب التى أفضت إلى خمول شكرى وفشله فى كل ما عالجه من فنون الأدب لأنه لا أسلوب له إذا كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء أن يجيل نظره فى كلامه ليدرك ذلك أن كان على شئ من الاطلاع فإذا لم يكن فهو لا يعييه أن يرى أن يستعمل اللغة جزافا ويكيل «توافيق وتباديل» كما يقول الرياضيون - من الكلام غير واضح ولا مؤديه معنى بعينه ويسطر على

الطرس أصداء مـتقطعـة لأصوات مألوفـة لا رموزا منتقـاة لتمـثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك فى موضعه من هذا النقد .

ويخـيل الينا أن شكرى على كثـرة الشكوى فى شـعره من الخـمول وحقده على اغفاله الناس أمره كما هو ظاهر من قوله :

قد طال نظمى للأشعار مقتدرا (؟) والقوم فى غـفلة عنى وعن شأنى

هذى المعـانى تناجيـهم فمـا لهم لا ينصـتـون بافـهـام واذهان ؟

وتعـزيه بأن الزمـان سـينصـفـه وبديل له من خـصـومـه وتظاهره بالاطمئنان إلى حكم الأيام فى قوله :

ارمى بشـعرى فى حلق الزمان ولا أبيـت منـه علـى هم وبلـبـــال

مجاراة للمتنبى وتقليدا له فى قوله :

أنام ملء جـفـونى عن شـواردها ويـسـهر الخلق جـراها ويختـصـم

نقول يخيل إلينا أن شكرى لو شـاء لفطن إلى سر هذا الخمل وعلة ذلك الاهمال ولعرف أن داءه كامن فيه وأن الناس لا ذنب لهم فقد بحثوا فى شـعره على شئ جلـيل يروع أو حسن يلذ ويمتـع أو مسـتظرف يلهى ويسلى وتقطع به ساعـات الفراغ وأوقات البطالة فـلم يجدوا عنده غناءهم وألفوه يريد أن يجعل نفسه هزؤة السخفاء وضحكة الفارغى القلب والعقل جميـعا . ولقد كان هينى الشـاعر الألمانى الجليل يسخر من نفـسه ولكنه

كان بذلك يسخر بالانسانية كلـها ممثلة فى شخصه ولا يسع كل قارئ إلا أن يحس أنه أصـاب موضع الداء . أمـا شكرى الذى أراد أن يقلد هينى والذى زعم أن العالم يفقد بموته ساخرا عظيما وذلك حيث يقول :

وأن «أدرج» فى قـبـرى   قـتـيل الحب واليـأس
فـمن يـصـدح بالشـعـر   ومن يـسـخـر بالـناس

هذا الساخـر العظيم والصيدح الغـريد والرسول الجليل لا يطمع فى منزلة ملحـوظة ولا تشرئب آمـاله إلى سمو قـلق وانما غاية ما يـرجو فى حيـاته أن يفوز به على قـدر ما استطعنا أن نسـتوضح غـرضه من ايماءاته الخرساء - وكل ما يقنع به ويسكن قـلقه وتهدأ ثورته إذا بلغه هو أن «تمر به الحسـان فترتضـيه» !! هذا هو دينه الذى يدعو الناس إلى عـبادته ولا ينفك يشكوهم إلى الزمان ويشتمهم ويرميـهم بالغباء لأنهم لا يستمعون إليه . أليس هو القائل فى بعض هرائـه إذا لم يكن الناشر قد نحله ذلك نكاية فيه:

كـفـانى من نبـيـه الذكـر أنى   تمر بى الحـسـان فـتـرتضـينى

ولا أدرى ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعى بعد الشعـر والتبريز فيه أنه جميل ؟ وكـيف تمر به وترتضيه ؟ هل أقـام نفسه فى معرض تمـر به فيه وتجسه بعيـونها وأكفها كما يفعل الصبـيان باللعب والصور ؟ وما ذنب نصف الناس على الأقل إذا كانت همـاتهم ومساعيـهم وآمالهم تنأى بهم عن دائرته الضيقة .

وعلى أنه عجز عن ايضاح هذا الغـرض الضئيل إذ من الذى يستطيع أن يفهم شيـئا من ارتضاء الحسان له ؟ ومع ذلك لا يتـحرج أن يقول فى نفس القصيدة التى أنزل فيها دينه على الناس وأطلـقها من قيود القافية - والوزن أحيانا - لكيلا يعوقه عن التحدر شيئا معاتبا الغرام :

انقـصـينا ونـحن مـقـربونا   من التـبيـان والأدب الغـزير

ولعمرى ما عدا الواقع فى قـوله أنه مقرب من البنيان والأدب ولكن التقرب منهما شئ وورود شرعـتهما شئ آخر ، وهل بل طرف لسانه من معينهما الفياض من يقول :

وفى السعى شئ يعوق الطماح   فيخطى الأجـل ويصمى الأقلا

ولو سئل هو نفسه فى معناه لضاقت عليه مذاهب القول أو من يقول فى صفة المشنوق :

ضاقت الأرض عن مآثمه فاعـ   ـتـاض عنهـا بـرقـة الملحـود

كـأنما حسب المرزوء فى عـقله - أن كل مـا فهـمناه من البـيت هو المقصود - أن المشنوق - سيظل مـعلقا فى الفضاء إلى الأبد أو أن الأرض تضيق عن شئ من المآثم أو المحامد أو أنهـا هى التى لفظته واعلته لتمكن حضرته من وصفه . ومن العجيب والذى يدل على أن شكرى متكلف لا مطبوع وأن ما يزعمـه من أنه من أهل المذهب الجديد فى الشعر باطل أنه هو نفسه قال ينعى على المتأخرين حماقاتهم وسخافة مناحيهم .

«وإذا صلب أحد الأمـراء قالوا أن قائليـه اجلوه فلم يرضوا له القـبر وينشدون أبيات الأنبارى التى يقول فيها :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن | يضم عـلاك من بعـد الممـات
أصاروا الجو قبرك واسـتعاضوا | من الأكـفان ثوب السـافيـات

ويقولون انـظر إلى مهارة الشـاعر فى قلب الحـقائق واظهـار الذميم مظهر الحسن . . وليس أدل على جـهل وظيفة الشاعر فى قـرنهم الشعر إلى الكذب وليس الشعر كـذبا بل هو منظار الحقائق ومفسـر لها وليست حلاوة الشـعر فى قلب الحقـائق بل فى اقامة الحـقائق المقلوبة ووضع كل واحدة منها فى مكانها إلخ .

فما أحلى هذا الكلام وأصدقه وما أبعد قائله عن العمل به وأدناه إلى المتأخرين الذين مســخوا الشعر «حتى صار» كما يقـول «كله عبثا لا طائل تحـته» أو مـا جدره أن يكف عن دعـواه أنه من رجال المذهب الجـديد فى الشعر وهو لا يقلد الا السـخفاء من القدماء باعترافـه . أترى هذا المفتون يحسب أنه يستطيع أن يخدع الناس بهذه النظريات التى ينقلها ولا يفهمها إذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما كان شعره من النوع الذى ينعاه على سواه ويعيبـهم به . أم ظن أنه يكفى أن يلوك المرء جملا كالبـبغاء ليكون فى نظر الناس حديثا سائرا مع الزمن مـؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر أن هذا هو الذى يعتقده شكرى فينا تراه يقول فى مـقدمات ديوانه «أن الشاعر الكبير

(مثله بالبداهة) يخلق الجيل الذى يفهمه ويهيئه لفهم شعره » ترى له فى بعض الدواوين يصف ليلة ذكرها :

يبيت الندى فوق الزهور مرقرقا كما انبعث الطل الرقيق ليقطرا

أو قوله فى فلسفة «تزاوج النفوس» :

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما ومهرها الحب لا يغلو لها المهر

من لى بنفس ارى نفسى بها مزجت كما تمازج فى وديانها الغدر

والنفس فى عيشها شتى منافذها منها القلوب ومنها السمع والبصر

(المقصود هو البيت الأخير) فأى جيل يريد هذا المائق أن يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السير كما ينطقها هو) أما كفى أن فى الدنيا سخيفا مثله حتى يطلب أن يوجد من أمثاله جيل برمته ؟ وأى بلية تكون شرا على العالم من هذه ؟ وأى خطب يكون أدهى وأعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال القائل :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولنا ماء !

وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد إلى النقد التفصيلى أن نورد للقراء مثالا لشعر السخر الذى يباهى به قال:

ناصر صروف الدهر مستقبلا قذاله لو جزته أقرع

فجز من لمته خصلة لعلها من خلفه ترفع

فـالـدهر أن أقـبـلت ذو لمة | لكنـه من خلفـــهـا أقـرع
مطلـعـه مـــثل طلوع المنى | وحــســرة مـا خلف المطلع
ولا ترم بالـذم صــفــعـا له | فـــانمـا يصلـع إذ يصـــفع
قـراعـه مـثل قـــراع الظبى | وانما يـقـــــرع إذ يقــــرع
فـــاطل قـــفـــاه بمداد لـعـ | ـــل اللون من روقـته يخـدع
وغض عـنه نظرا واعـــيـــا | فـــانمـا يعـــديك مـا يطـبع
وأن جـــرى فى الدم كـــره له | فخـير مـا يجدى لك المبـضع
حـجـامة لا شك فـى نفعـهـا | وقـد يضـيـر المرء مـا ينفع
ولا تعف صـــحـــبـتــه انه | بالرغـم من صلعـتـه أروع
واحن له الرأس لـكى لا ترى | فــانـهــا من خـلفـه تـلمع

ونحن أنما نمثل لبكم هذا المسكين ولا نستقصى مخافة أن نحتاج إلى نقل كل شعره على التقريب . ونقول على التـقريب لان له أبياتا مبعثرة فى أجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره على مثالها منسوجا على منوالها لصار صنمـا معبودا لا منبـوذا كما هو الآن . ومـا بالعجب أن يكون له بضعة أبيات مفهومة فـانك لو جلست ساعة إلى مجنون ابله لجرى لسانه بجملة أو جمل تلمح فيها أثر العـقل . وأن كان لم يفكر فى مبلغها من الصواب وحظها من السـداد . وللعقل الذاهل المضطرب انتباهات فـجائية لعلها من أقوى الدلائل على الرزء فيـه وقد جمع صاحبنا إلى البكم الذى

مـثلنا له ضـعفـا فى الذهن واضطرابـا فى جهـاز التـفكيـر لم تنفع فى معالجتهما كثرة القـراءة والاطلاع على خير ما أنتجت العقول . وقد يعلم القارئ أو لا يعلم أن الاطلاع قلما يجدى إذا كان الاستـعداد مفقودا وكان الذهن غيـر مستـو أو صالح «لهضم» مـا يتلقاه والانتفـاع به وتحويله إلى فكرة مكونة من امتزاج الجـديد بالموجود - كالمعدة الضعيفـة لا ينفعها أن تزحمها بألوان الطعام وكثيرا ما يكون الاقبال على الكتب والولع بها نوعا من الشره تحول من المعدة إلى الدماغ . وما عدونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه حيث يقول « ويتماز الشاعر العبقرى (يعنى نفسه أيضا) بذلك الشره العقلى الذى يجعله راغبا فى أن يفكر كل فكر» ولكن ما به ليس من هذا القبـيل وشرهه لا يجعله يحس إلا بالحـاجة إلى قراءة كل كـتاب لا إلى التفكير . هذا هو مـا يعانيه شكرى ولعله من أسباب ضعـفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب العفاريت وقصص السحرة والمردة والجان لما وقع فى نفسه من أن هذا حقيق أن يقـوى خياله ويجعل له أجنحة يحلق بهـا فى سماء الشعر وفاته هو وأمثاله أن الخيال يجب أن يطير بجناحين من الحقيقة وأن كل كلام ليس مصدره صحة الإدراك وصدق النظر فى استشفاف العلاقات لا يكون الا هراء لا محل له فى الأدب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان العواطف وضعف الروح تعيش فى عالم الشعر ؟

وليس فى الوضـوح وقوة الأداء وحـسن البيـان ما ينفى العـمق لأن العمق ليس معـناه الغموض . فليكن الشاعر عـميقا كـما يشاء ولكن مع

الوضـوح والجلاء إذ أيهـما أحـوج إلى النور يراق عليه ويكشف عنـه ما تلمسه اليد وهى تمتد وتعـثر به الرجل وهى تخطو أم ما يغوص عليه المرء فى أغـوار الفكر ؟ فكل غـمـوض دليل أمـا على العـجـز على الأداء أو التدجيل أو استبهام الفكرة فى ذهن صاحبها .

على أنه من أفحش الخطأ وأضره بالاستعداد وأشده افسادا للفطرة أن يتكلف المرء غير مـا أعدته له طبيعـته وأن يعالج محاكـاة النسور أذا كان طوقه لا يتجاوز دبـيب النمال فان العقل الصغيـر إذا التزم حدوده وقام بما يستطيـعه على الوجه الصحـيح قد يصل إلى غايتـه من طريقه ولا يجس الحاجة إلى قوة العقل الكبير .

وقد ركـب شكرى هذا الجهل فـتكلف ما لا يحـسن واراد أن يكون شاعرا وكاتبا من الطراز الأول وظن أن الاجتـهاد يغنى غناء الاستعداد فلا هو بلغ أية درجـة مما طمع فـيه ولا هو أبـقى على خلقـه الوادع وقناعتـه بميسور العيش ومنزل انزله الله وحال ألبسه اياها .

ولما كان السقم فى الكلام مرده السقم فى الذهن فسنبدأ نقدنا بالدليل الضمنى المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب ببيان الفساد الذى اكتظت به داوويـنه ونختم الكلام بتـقصى سرقـاته واغاراته على شـعراء العرب والغرب جميعا .

*

لا نقـول أن شكرى مـجنون فنحن أرفق به من أن نصـدمـه بذلك وأعرف بحالة وبأمراض العقل من أن نهيجه إلى الخبال بالايحاء والتذكير والالحاح ولكننا نقول أن ذهنه متـجه أبدا إلى هذا الخاطر - خاطر الجنون - وأن فكرته مالئة لجو حياته والخوف منه منغص عليه كل لذاته وعلالاته وأنه حتى فى طعامه يتوخى ما يظن أو يقال له أنه يكفل اتقاء هذه النكبة أو يساعد على المقاومة كـالسمك والبيض والمخ وأشباه هذه الألوان - وأن ذكر هذا اللفظ على مسمع منه يدخل فى روعـه أنه هو المعنى به فيمتقع - ولا يخفى أن اتجـاه الذهن له دلالة خاصة وهو قـرينة قلما تخطئ إذ لماذا ينصرف المرء إلى خـاطر بعينه لا يعدوه فى روحاته وغـدواته وفى طعامه وشرابه ويقظـته ومنامه وفى أقـواله وكتـاباته من شعر ونـثر - أو منظوم ومنثور علـى الأصح - ولكن اتجاه الذهن لا يصح أن يؤخـذ به وحده فى البت بأن المرء صائر لا محالة إلى آخر الطريق . وأكثر أهل الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شئ كثير من الشذوذ والجنون والعبقرية بسبيل وهما فى الحقيقـة صنوان وحالتا العقل فيهـما متماثلتان ، فالعـبقرى ذهنه مكظوظ بالآراء حافـل بالذكريات يتـمخض أبدا عن إدراك عـلاقات بين الحـقائق والأصوات والألوان لا تفطن إليـها عقـول الأوساط . والمجنون فى ذلك نده وقريعـه وكلاهمـا ترجع مميزات تفكيـره وعلمه إلى فـرط النشاط فى بعض نواحى المخ أوفتـورها أوقابليتها للتـنبيه والتهـيج وكثيـرا ما تنقلب العبـقرية جنونا والجنون عـبقرية . وقـد فطن الأقدمون إلى هذه العـلاقة

ولمحوها وأن كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير أن جنون العبقرية منتج يخرج - كما يقول أفلاطون - الشعراء والمخترعين والأنبياء أما الجنون المألوف فهذا عقيم نعيذ صاحبنا شكرى منه . ولا ينبغى أن يتوهم أحد أن العبقرية هى الجنون فليس أفحش من هذا الخطأ ولا أقتل من ذلك الظن لأن العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العادى وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع من الاضطراب فى التوازن العقلى والعصبى .

قلنا أن ذهن شكرى متجه إلى هذا المعنى وقد يكون هذا غير راجع إلى علة أصيلة فيه إلى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل عليها ويرهقها به كأن يكتب جزءا من ديوانه فى شهر واحد حتى كأنما هو مأجور على ذلك ومشروط عليه أن يتمه فى وقت محدود . وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال أن حدثته نفسه باحراقه بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحتنا ولم يعط نفسه حظها من الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبى حقهما عليه وظل يخرج للناس الجزء تلو الجزء كأنما يخشى أن يخب به المرض ويوجف بعقله الداء فلا يستطيع أن يصدح بالشعر ويسخر بالناس » !! وماذا أجناه كده ؟ كان كل جزء يصدر فكأنما هو حجر وقع فى بئر فلا هو «صدح» ولو فى حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء عقله .

وإلى القراء أمثلة لذلك . قال من قصيدة «الحب والموت» .

حنينى إلى وجه الحبيب جنون   جنون يهيج القلب وهو شجون

وقال من قصيدة الدفين الحى :

فهاج هياج الشـر فى الأسر طرفة وأدركـه حـتى الممـات جنون

وقال من قصيدة غاية الحب :

وإن كنت عندى جئت بالعقل والحجى وإن لم تجئ فالقلـب مجنون ثائر
ولكـن وجـدى مـنك جن جنـونه فـها أنا من حـبى بحـسنك هاتر

وقال فى «طبع الإنسان» :

ان بالمـرء جنـونا جـــاعـــلا نوبة لـلشـر فـيـه تحـتـدم
لا ينـال البـــرء مـن نوبـتـــه أو يـذيع الشـــر منه والالـم

وقال من «مرآة الضمائر» وكان له فى البيت معدى عن لفظ الجنون :

وفى كل وجه من جنون ومن اذى مـلامح لا تخفى تـناديك بالجهـر

إذ من الذى يسـتطيع أن يدعى أن فى كل وجـه مـلامح من الجنون ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحـسب كل امرئ غيره سكران ؟ وقال من قصيدة «سلوان الجنون» :

عسى أن تجن النفس فـيكم جنونها فـلا ذكرة تصـبى ولا فكر يخطر
فـان جنون النـفس سـعـد وراحـة وان عناء الحـب ذاك التـذكـر
فانسـاك حتى لسـت أدرى أعائش على الأرض تسعى أم دفين معـفر
فــان يبلغ الحب الجنون فــلا تلم أما كل مجنون على الهـجر يعذر

وقد كان له مندوحة عن تمنى الجنون وكان فى وسعه أن يطلب الموت أو السلوان ولكنه لشقوته يحسب أن المجانين سعداء لا يكرب أحد منهم خاطر ملح أو وهم جاثم ولو أنه سأل طبيبه لعرف منه أن بعض المجانين يعذبون أنفسهم بما يتخيلون وأنهم كثيرا ما يخلقون لأنفسهم جحيما من الأوهام يصلونها ، على أنا لا ندرى من أين جاءه ولماذا ظن أن حبيبه سيلومه ويعاتبه على الجنون إذا بلغ الحب ذاك ؟ ولكنه معذور على هذه السفسطه على كل حال والناس كذلك معذورون إذا لم يقرءوا نظمه .

وقال من قصيدة «صنم الملاحة» :

بلغ الغـرام إلى الجنـون   فـلا عتـاب ولا ندم

وقال من قصيدة «الحسود»

وأدركـه مس الجنون وأظلمت   عليه السماء والنهار جميل

ومن قصيدة «بالله ما تفعل لو بلغوك» :

بالله مـا تفـعل لو بلغـوك   أنى عـرتنى جنة من هواك
وكـيف لا يذهب لبى والهـوى   إذا مضت لى أشـهـر لا أراك

ومن قصيدة «أنا مجنون بحبك» :

أنا مـجنون بحـبك   فـأزل غلة صـبك

ومن قصيدة القديم والجديد :

ومن العشق جنون خابل ... يزدرى المرء له وقع التهم
أنما الحب جنون وجوى ... ورجاء واجترام وندم

وقد ترقى فى هذا المعنى من القول بأنه هو مجنون إلى نسبة الجنون إلى الناس كلهم إلى الحياة نفسها والدهر أيضا . قال من قصيدة «جنون الحياة» :

لا ترع فالدهر مجنون ... كل حى فيه مغبون
جن من حول ومقدرة ... وكذا ذو الحول مجنون
فتضاحك ثم قل أبدا ... أن هذا الدهر مجنون
دهرنا دار المجانين ... كل حى فيه مسجون

ومن قصيدة «بعد الحس» :

وكنت أعد الحسن فيك فطانة ... وأن جنونى فى هواك صواب

ومن قصيدة «وحى الشعر» :

كجنون النعيم والبؤس فيهم ... وهى تبدو لغيرهم كذكاء

وفسر البيت بقوله «أى عواطف الشعراء تهدى غيرهم ولكن من أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والآلام » فأنا أشهد الله والناس أنى

لا أحس هذا الجنون .. ولكن أحسبه سينكر على الشاعرية لهذا على الأقل . وقال من قصيدة «مشترى الأحلام» :

لو يستحيل المستحيل على الورى … وأنال من أحلامه ما أطلب
لجننت جنة قادر متحكم … يرضى على هذا الآنام ويغضب

فالحمد لله الذى لم يحكم فى الناس نزوات جنونه وقال من قصيدة صوت النذير :

أم ضحكة الرجل المجنون من حزن … لشد ما نال منك البؤس يا رجل
ختام تنكر حقا غير مشتبه … لا يكره الحق إلا من به دخل

وهذا تقييد عجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بغضه أياه راجعا إلى أى سبب غير الجنون :

وقال من قصيدة بين الحب والبغض :

وأن بقلبى من جفائك جنة … فان رام يوما قتلكم ما تأثما
فأسقى جنونى من دمائك جرعة … وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

فيظهر أن حبيبه عرف ذلك منه وأدرك أن جنونه قد يدفعه إلى الاجرام فتحرى البعد عنه فما أشقاه ! جنونه يغرى حبيبه بالهجر والهجر يزيد فى جنونه فأين المخرج من هذه الحلقة وإلى أى حال ينتهى به هذا الدوران ؟ ونحن بعد لم نقلب إلا جزءا من ديوانه لا يبلغ عدد صفحاته

السبعين وناهيك بما فى الأجزاء الأخرى . ولم تنقل من شعره إلا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه وإلا فإن هناك أبياتا عديدة تضمنت هذا المعنى وأن خلت من اللفظ كقوله :

أمشى (أحدث نفسى) عن محاسنكم حتى يخال حديثى لغو نشوان
نشوان ليس له عقل فيسكته الحب خمرى وليس الخمر من شأنى

فإذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندرى ماذا يكون ؟؟ وقوله وهو أدهى :

واهتف طول الليل باسمك جاهدا وهاجس هذا الذكر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا فى الهتاف ويعترف بأن هذا داء ملازمه لا عرض زائل وقوله :

(غاب رشد الناس) عن أنفسهم ضاع منهم تحت أشلاء الرمم

.... إلخ إلخ

وليس الأمر بمقصور على جولان هذا الخاطر فى نفسه وملازمته أياه أبدا وعلى الصياح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب فى الطريق كالسكارى والاعتقاد بأن كل الناس مجانين وأن الحياة نفسها جنت والدهر كذلك وأن لكل شئ جنونا مجنا وأن الزمن دار المجانين ومستشفى مجاذيب وأن الناس كلهم مرضى كما يقول :

فى كل دار من جواه مريض وكل قلب فيه جرح رغيب

كأنما يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا أن الأمر كما وصف والحال على ما زعم وأن كنا نعلم أن الحب بنى عليه بقاء النوع ولكن ليس كل حب ذاهبا باللب نقول ليس الأمر بمقصور على ذلك فإن شكرى على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وهو - تساهلا فى التعبير - مرض يجعل صاحبه يتوهم مثلا أنه يسمع أصواتا أو يرى أشباحا تختلف وضوحا واستبهاما حسب درجة الحالة فإذا أصاب العين رأت مالا وجود له فى الأذن سمعت ما لم يصدر فعلا من الأصوات وقد لا يصحبه أى اضطراب محسوس فى القوى المفكرة وأن كان لاشك مع ذلك فى أنه اضطراب محلى فى المخ إذا اتسعت رقعته أحدث الجنون وكثيرا ما يصحب بعض حالات الجنون «هذيان الاذن» أى اعتقاد المصاب أنه سمع أصواتا وأن أرواحا تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن بائع كتب فى برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تسير فى الطرقات وأشباح الآدميين والحيوان أيضا وكان يسمع أرواحا تلازمه بالليل تتخاطب وقد تكلمه ويسأل بعضها عن بعض وقد عولج من ذلك بوضع «الدود» على عنقه إذ كان سبب كثرة الدم الصاعد إلى بعض نواحى المخ .

وقد قال شكرى - اعاذه الله من شر ذلك - فى الصفحة الثانية والخمسين من الجزء الثالث تعليقا على بيته هذا :

أو كنور البدر فضيا له وتر فى القلب فضى النغم

«ما رأيت القمر إلا أحـسست كأن نواقيس تطن فى أذنى . وأن ألذ الأنغام رنة الفضة المجوفة » أهـ .

فهذا كلام لا مجال فيه للتأويل والتخريج وهى قاطعة فى أنه فى كل مرة يرى فيـها ضوء القمـر (يطن) فى أذنه صوت نواقيـس فضـية ولنا أن نلاحظ أمورا :

أولها : أن البيت لم يكن يـستدعى هذا القول منه لأن معناه مـفهوم بدونه .

وثانيـها : أن مـا (يطن) فى أذنه «كلما» رأى ضـوء القمـر ليس له علاقـة كبـيرة سوى عـلاقة اللفظ العـارض - بتقريره أن الـذ الأنغام رنة الفضـة المجوفـة خصوصـا وأن رنتهـا «ليست» ألذ «الأنغـام» وأن كانت «أخلص» الأصوات وأصفاها والفرق كبـير بين صفاء الصوت وبين حلاوة النغم . نعم أن الصفاء من عـوامل الحلاوة فى النغم ولكن خلوص الرنة من الأكـدار - مع التسـامح فى عد الرنة نغـمة - لا يمكن أن يعـد «ألذ» الأنغام .

وثالثهـا : أنه كلما رأى «ضوء القمـر» طن فى أذنه هذا الصوت ذو الرنين ويعرف الخـاصة وأهل الاطلاع والملاحظة أن «ضوء القمـر» مقرون فى أذهان شـعوب كـثيـرة بذهاب العـقل والهـذيان كمـا يدل على ذلك استـعمال هذه العـبارة فى لغاتهـا ورابعها أنه إن كان صـادقا فيـما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتـردد المرء فى الذهاب إلي أنها مريبة وأن كان

قد كذب على نفسه فلنا أن نتساءل لماذا يعـزو إليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب فى طائفة من الأعصاب لها اتصال عظيم بالدماغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول فى هذا الباب ولكنا قد أطلنا وأن كان التحليل ممتعا مـغريا بالاسهاب والافاضة ولذلك نجتزئ بملاحظة أخرى وهى أن لشكرى كتابين غير دواوينه أحدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يسـتحق الذكر إلا أنه وصفه بأنه «أحلام مجنون» والآخر رواية اسمها «الحلاق المجنون» وهي كذلك تافـهة لا قيمة لها وقد احتذى فـيها كاتبا روسيـا فى رواية أسمها « هل كان مـجنونا» وموضوع قصة شكرى أن حلاقا ذبح زبونا له لأن رأس الزبون تشبه رأس الخروف فأغراه هـذا الشبه بذبحه بموسـاه وهى فى الحقيقـة سلسلة قصص من هذا النوع مروية على لسان زبائن الحلاق .

وقد سبق لنا أن نبهنا شكرى إلى ما فى شعره من دلائل الاضطراب فى جهازه العصبى وأشرنـا عليه بالانصراف عن كل تأليف أو نظم ليفوز بالراحة اللازمـة له أولا ولأن جهوده عقيـمة وتعبه ضـائع ثانيا ولم تكن أمـامنا فى ذلك الوقت كل هذه الـشواهد فلـعله الآن وقـد رأى كثـرتهـا وتوافرها - وهى كـثرة مروعة - يرجع إلى رأينا ويرتضى مـا أرتضينا له وما هو خليق أن يحمده النـاس منه فلا يحاول أن يغالب مشيئـة الطبيعة التى لا تخلق الآبكم إلا وهـى قادرة على الزامـه البكم طول حـيـاته ولو «جن» تحرقا على النطق .



الجـــزء الثانى

أدب الضعف

الأدعياء فـى كل بلد كثيرون وفى كل قطر كـالذباب يعيشـون عيالاً على الأدب وحميلة على أهله وذويه ولكنهم فيـما نعرف لا يعدون الطنين فى غير هذا القطر ولا يعدو جمهـور الناس معهم أن يلحظوهم كما يلحظ أحدنا العناكب ناسجة لها بيتا بين جدارين فيقول لخادمه أو ربة بيته أزيلى هذا وأتى عليه بالمكنسة ثم لا يقولهـا حتى ينسى أمره ويذهل عن خبره . أما فى مصر فالحال على خلاف ذلك والأمـر على عكسه ونقيضه . يظهر الدعى فيستولى على الميدان ويخـر الناس له سجدا إلى الأذقان ويباهون به الأمم والأزمان فان سـألتهم فى ذلك وعلته وماذا بهـرهم منه وكيف كان على حد تقـصر عنه قوى البـشر ومنتهيـا إلى غاية لا يطمح إليهـا حتى بالفكر أحالوا وتهربوا وفتحـوا أبوابا من التعسف لا تستند إلى أصل ولا يعتمد فيها علـى عقل وظنوا بك الفند وجروا فى أوهامهم إلى آخر الآمد كأنما التوق إلى أن تقر الأمور قـرارها وتأخذ الأشياء اقدارها شئ ليس فى سـوس العـقل ولا فى طبـاع النفس . وليس الأمـر بالهين الذى تتـأتى مداواته ويسـتيسـر علاج ما يعـرض فى الآراء منه فإن الداء عيـاء والبلاء عظيم والمصاب كبير . وأصل الداء ومـعظم الآفة والذى صار حجازا بين القوم وبين التـأمل وأخذ بهم عن طريق النظر مـرض فى عقـولهم شديد

الخفاء أورثهم أياه الجهل وما طبعتهم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا لا يملكون أن يصغوا لما يقال لهم ولا أن يفتحوا للذى تبين أعينهم أو يأخذوا لأنفسهم بالتى هى أملأ لايديهم وأعود بالحظ عليهم حتى صاروا من كل أمر فى عمياء قصاراهم أن يكرروا ألفاظا لا يعرفون لشئ منها تفسيرا ويرددوا ضروب كلام أن سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبيينا .
وما لهؤلاء نكتب ولا من أجلهم نتكلف أن نكوى عرق الباطل ونخرس ألسنة الكذب والتدجيل وننقض بناء المنكرات والشناعات التى أقامها نفر من الأدعياء نشأوا فى غفلة الزمن فإن من المستحيل أن نرجع بهم إلى سن التفكير والبحث والتقصى وحب الاستطلاع ولكنا نكتب ونشرح وننصب الميزان لمن يحس أنه رزق عينيه ليفتحهما على الأشياء ويجيلهما فيها لا ليغمضهما دونها وأوتى العقل ليتصرف به فى الأمور ويتبين النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لا ينكر فى ذلك حسه ولا يغالط فى الحقائق نفسه ولا يجب أن يستسقى إلا من المصب أو يأخذ إلا من المعدن مؤثرا الغبينة والهزيمة والفشل على احالة الأشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها ونقلها عن طباعها وقلب الفطر إلى أضدادها - لهؤلاء الذين هم معقد الأمل ومناط الرجاء نفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها ونعدها ونرفع لعيونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التى تكون أضوأ لها وأكشف عنها صابرين على طول تأملهم مغتبطين بعدم قناعتهم الا بالاقتناع . إذا ما خيير مقلد فى ظاهر عالم وشاك فى صورة مستبين ؟؟

وليس فى مصر شئ عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن الجرى مع الأوهام والذهاب إلى أشنع الشناعـات وأسوأ المنكرات مـا عرض لهم فى الأدب حتى صاروا إذا عـمد عامد منهم إلى الألـفاظ وجعل يتبع بعـضها بعضا من غـير أن يتوخى فى تنسيقـها معنى فقد صنع مـا يدعى به كاتبا وشاعرا ومؤلفا يضن الزمـان بمثله ويعيى الأمم مكان نده . وفساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج إلى تنبيه أو أن يتجشم أحد منا اقامة الحجة عليه والتـدليل مع التبسط فى الإيضـاح وتحرى البساطة فى سـوق المبادئ وتفصيل الأصول وما ندرى غدا بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة إذا رأونا ندلى بالحجة والبـرهان على ما لا حاجة به إلى الصفة والتـبيان وما صار دسـتورا مـعهم لهم به عن ايـضاح الأصول والبـدالة غنيـان ؟ أفلا يعذرون إذا شـبهوها بالأطفـال تتقاذف الـلعب وهى تحسبـها أدوات الكر والطعـان ؟ بل ولا يعرفـون ما كنا نسـتطيعـه لولا موت القلوب وعـمى العيون واعوجاج الأذهان .

ولماذا لا يرون من أعجب العجب ذلك الذى عليـه الأدعياء المقلدون فى أمر الأدب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الأدعـياء لا تجد فى الأمر الأعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة ثم هو مع ذلك لا يرى الذى تريه ولا يهتدى لما تهديه . بل ماذا عسى يكون رأى الغربيين إذا أطلعوا على هذه المنكرات الشنيعة التى تتمخض عنها الطبائع الممسوخة والأذهان المتنكسة ؟ أن الجيد فى لغة جـيد فى سواها والأدب شئ لا يختص بلغـة ولا زمان ولا مكان

لأن مـرده إلى أصول الحـيـاة العامـة لا إلى المظاهر والأحـوال الخاصـة العارضة . وكـذلك الغث غث فى كل لغة فى أى قالب صببتـه وسبكته وبأى لسان نطقته .

وقد لقينا من التشجيع ما يغـرينا بالاسترسال ووجدنا من الاقبال ما قوى الآمال فى صلاح الحال وهاكم صنما آخر من معبودات الضئال نهدمه ونلقى به بين الاطلال .

ترجمة المنفوطى

عنى السيد المنفلوطى بترجمة حياته فكتبها وصدر بها الجزء الأول من نظراته وذيلها بتوقيع من لا يبالى دسها عليه فى كتاباته ونحن لا يعنينا هذا الأمر إلا من حيث دلالته على طريقة السيد فى الاحتيال على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وأمثاله على تأثير الألقاب والمناصب فى عقول البسطاء كلما أرادوا أن يزفوا إلى الناس عرائس أفكارهم أو يشيعوا إلى قبور صدورهم أموات خيالهم . وإذ كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد أن يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزنا عادلا لآثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذى يعنينا من السيد ما خطه يراعه الرشيق وأملاه عقله الرقيق فان الذى يستحق أن يكون على ظاهر الأمر مقدما على سواه وحريا بأن يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول فى «بنات» عقله ثم نأتى على ذكر رواياته وقصصه فى آثر هذا وذاك على أننا ربما عطفنا عنان الكلام على الأخيرة قبل الأوان توفية للحقوق وبيانا للفروق وكشفا عن الحال وايقافا للقارئ على مبلغ سعة المجال .



السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رجل شريف جاء إلى هذه الدنيا المرزوءة منذ خمسة وأربعين عاما من أبوين كريمين كرما يثبته أو أولهما - ولا ندرى أيهما يعنى ولكنه أحدهما على كل حال - ينتهى نسبه إلى الحسين بن على جد كل مسلم ومسلمة ومنافس آدم بكثرة النسل «تفاقم» الذرية . وثانيهما إلى أسرة جوربجى التركية «المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل» .

ولم ير السيد زاده الله شرفا ورفعة لسوء حظ النقد ان يزيد على هذا فى بيان نسبه إلا أشياء ظاهرة لا تحتاج إلى تدوين ولا تحتمل الايضاح والتبيين كقوله أنه «ولد فى منفلوط من مدن الوجه القبلى فى جنوب مصر» وأن أسرته هناك «مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل» فإن لقب السيد يدل على ذلك ونسبته تهدى إلى معرفة ما هنالك ولكنا نحسبه خشى أن يضل القارئ ويختلط عليه الأمر فيتوهمه مقذوفا به إلينا من المريخ - والحق أن له العذر فى خوفه هذا إذ ليس فى كتابته ما يدل على أنه مثل أبناء آدم احساسا بالحياة وفهما لها وجريا على سنتها وأداء لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود إلى ترجمته فنقول وليته إذ عنى بهذه التفاصيل البديهية كان قد ساق إلينا ما هو حقيق أن يعين الناقد على تقدير أثر العوامل الوراثية فى تكوين أخلاقه النادرة التى يصفها بأنها «انقباض عن الناس ووحشة يحسبها الرائى صلفا وكبرا وما هى بالصلف ولكنها الرزانة والوقار والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف

الأمور والترفع عن مخالطة من لا تعجبه أخلاقه ولا تجمل فى نظره أطواره. وعفة حتى عن مد يده إلى أبويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وأدب وحياء وحلم يظنه الظان عجزا وضعفا فإذا غضب وقليلا ما يفعل فهو الليث قوة وشجاعة وإيمان قوى كالطود الراسخ وصبر جميل على ما يذهب باب الحكيم من حوادث الأيام فقد مات له طفلان فى أسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة ثم ماتت زوجته بعد ذلك فجلس إلى أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها كأنما المرزوء سواه وليس أحقر فى نظره من مدح المادحين ولا أحقر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس أبغض إليه من الكذب وكثيرا ما كنت اسمعه (!) يقول «لا طلعت على شمس ذلك اليوم الذى يرضى فيه عنى الجاهل أو يعجب برأيى البليد إلى آخر ما لا يستكثر على سليل النبوة العربية والفتوة التركية .

ولكننا بتنا لتقصيره فى ترجمته لا نعرف مقدار فضل الوراثة ومبلغ الاكتساب فى هذه الفضائل وفى كل هذا الأدب الجم الذى جعله - كما يقول - الكاتب الفريد الذى يحافظ على أسلوبه البليغ فى جميع حالاته وشئونه سواء فى ذلك المعانى المطروقة لكتاب العربية الأولى أو التى لم يكتبوا عنها شيئا ولم يرسموا لها أسلوبا مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته لا عارية من عواريه .

وليس فى أن يترجم المرء لنفسه من عيب ولا هو ببدعة ممن هو

كالسيد الشريف المنسب لا يحدث إلا عن نفسه ولا يصدر فيما يكتب عن سوى يومه وأمسه . ولكن ما هذا يكتب الناس عن أنفسهم ويتقدمون إلى قرائهم بتراجمــهم ووصف آبائهم . وما للقراء ولاجدادك الذين لم تزدنا بهم علما فيشفع لك ما أفدت فى سماجة ما كتبت ولقد قرأنا لجيته شاعر الألمان الضخم كتابا فى تاريخ حياته يقع فى أكثـر من ستمائه صفحة ولا نذكر أنه أورد اسم أبيـه حتى ولا فى سياقـه الحديث دع عنك خلع حلل الثناء على أجداده . ولقـد جعل وكده أن يشرح لقـارئه أدوار نموه العقلى وكيف تكونت أخلاقه ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتات ذهنه وهو ما يعنى قراء التراجم . أما الأجداد والآباء فما دام الكاتب لا ينوى أن يذكر ولا يستطيع أن يعرف عنهم أكـثر من الأسماء فخـير له وللناس أن يسدل عليهم أسـتار الخفاء حـتى لا يجمع إلى الجهل أو العـجز نقيصـة المباهاة الكاذبة أو عيب الادعاء .

على أنه أن فاتنـا هذا الذى كنا نحب أن لا تخلو منه الترجـمة ولم نعـتض منه إلا ما هو منشـوء ثقيل على النـفس فإن فـيما كـتب السـيد الشريف الجليل العـربى التركى الحسينى الجوربجى المنفلـوطى الكفاية فانه أعزه الله لم يألنا كشفا عن آرائه وأخلاقه وفـضائله ومحامده وأسرار نفسه ودخـائل صدره وهواجس خـاطره ولم يضن على قـارئه بوصف أحـواله وكيف يكتب وكـيف يأكل ويشرف ويلهـو ويلعب ولأى شئ يطرب ومم يغضب وماذا يمقت وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه فى غنى عما يبدئ فيه فى ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يثبتها لنفسه حتى نسى أنها له فانتحل غيرها من المقالات !!

ويالها من شـجاعـة لا تجعل صاحـبها يحـفل التهم أو يعنى نفـسه بالصدق فيما نحلها من الشـيم ! فهل تعرف أيها القارئ من أى ضروب الشجاعة هذه فإن لها لأنواعا وضروبا ؟ ليست شجاعة الايمان ولا شجاعة يبعثهـا احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا شـجاعة الطيش وانما هى شجاعـة . . الطعام !! نعم والموائد الممدودة والأخـونة المنصوبة . وأنك أيها القارئ إذ تنكـر هذا القول علينا وتمط شفتيك وتـزوى ما بين عينيك لتدل بذلك على أفحش الجهل وأفضـحه بأسرار فعل الطعام . ولكنك إذا ساءلت نفسك ماذا عـسى أن يخشى السيد الشريف الحسـيب النسيب بعد أن يجمع حول مائدته الأسبوعية فـيمن يجمع هؤلاء المتسولة من أصحاب بعض الوريقات القذرة ويملأ لهم بطونهم كنت حقيقا أن تفهم ما نريد من شجاعة الطعام . أتراك لم تسمع بالمثل العامى القائل «أطعم الفم تستحى العين» ؟ ومـاذا صنع السـيد أكثر مـن الجرى على السنن العامـية فى كل شئ ؟ فى كـتابته وفى مـعاشـرته وفى اتقائه الألسن - وهذا هـو السر - فأعلمه - فى أنك لا تسمع به فى هـذه الوريقات ولا تراها تلهج به مادحة ولا قادحة .

ومن ظريف ما نرويه فى هذا المقام أن السيد سمع بعزمنا على اخراج هذا الكتاب فـجاء يدعونا إلى مائدته وأرسل يلح علينا فى «تشـريفه» فلم ينقذنا من الحـاحه ولم ينجنا من مـوقف الغدر ونكران جمـيل مائدته إلا المرض ! فما أحسن المصائب فى بعض الأحيان ؟

الحلاوة والنعومة والأنوثة

وبعد فماذا فى كتابات المنفلوطى مما يستحق أن يعد من أجله كاتبا وأديبا إلا إذا كان الأدب كله عبثا فى عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيوخنا المائقين يقول : «أن فى أسلوبه حلاوة» ولو أنه قال «نعومة» لكان أقرب إلى الصواب ولو قال « أنوثة » لأصاب المحز . وهذا كلام يكاد يعده من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الألغاز والأحاجى فلنفسره لفائدة الناشئة أن لم يكن لفائدة ذاك الذى لا نرجو منه خيرا . قال مهيار :

فيارب قلد دمى مقتلى بما نظرت وأعف عن قاتلى

هنيئا لحبك - ذات الوشاح دم طل فيه بلا عاقل

وحبى ذكرك حتى لثمت مسلكه من فم العاذل

هذا مثال للنعومة - كلام مصقول لين الانحدار تستطيع أن تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصقل فيه إذا نثرته وتأملت ما تحاشاه الشاعر من الألفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد إذا تدبرته لم تشعر أن وراءه شيئا لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية ما فى الأمر أن صاحبه أراد القول فى هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما كان

الشاعر قد أعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ إلى الاحتيال والصنعة وحسب الافراط في الرقة يكسب الجمال ويغنى عن الاحساس به فقلب كل شئ وحمل عينه ذنب النظر إلى الحسن ودعا الله أن يبوء المقتول بالقاتل تناهيا فى اللين وذهابا إلى أقصى المدى فى الطراوة ولا قتل هناك ولا قاتل ولا دم مطلول بغير عاقل وإنما هو التطرى والرخاوة ثم ذهب يقول أنه لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو من سخافات التطرى ويكفى لادراك مبلغ السخافة أن تتصور مثل هذا المنظر حادثا واقعا . وأمثال هذا كثير فى غزل المقلدين والعابثين لأنهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا إلى الصقل وضحوا فى سبيله الرجولة والعقل.

ومهيار بعد من الفحول أو هو على آثارهم ماض وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الإدراك للفرق بين مذهب العرب فى الشعر ومذهب الآريين - أو الفرس فقد كانوا لا يعرفون إلا عربا وعجما . يدل على ذلك قوله يصف شعره :

حلى من المعدن الصريح إذا غش تجار الاشعار ما جلبوا
يشكرها الفرس فى مديحك للمـ ـعنى وترضى لسانها العرب

فكأنه لم يغب عنه عناية العرب باللفظ وآكبارهم شأنه وذهاب غيرهم إلى المعنى قبل اللفظ وله ما لا يكاد يدانى فى حلاوته وعذوبته كقوله :

اذكرونا ذكرنا عهدكمو رب ذكرى قربت من نزحا

وقوله :

آه على الرقــــة فى خــــدودها   أو أنهــا تسـرى إلـى أكبــادها

فإذا كـان مهـيار وهو من علمت يقع فى هذا فـما ظنك بالمتـأخرين والعابثين الذين افتنوا فى العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل للإنسان أنهم كانوا يتبـارون ليروا أيهم أعظم تطليقا للعـقل واتيانا بالمستحـيل ونسيانا لأحكام الحياة . أما الحلاوة فتجدها فى مثل قول الشريف الرضى :

أنت النعــيم لقـلبى والعــذاب له   فـمــا أمـرك فى قلبـى وأحـلاك

وقوله من القصيدة عينها :

عندى رسائل شـوق لست أذكرها   لولا الرقـيب لقـد بلغـتهـا فـاك

وليس يمنعك أن تتذوقها من البيت الأول ذكر المرارة فانها هنا أخف ما تكون وليــست كل القصـيدة من هذه الطبقـة ولعل التمـثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغربى أجدى وأنفع فى تبيين المراد ولكننا لا نحب أن يفهمْ أحد أننا قـوم افتتنا بالغرب حتى ذهلنا عن مـحاسن العرب ولا أن يظن بنا الاعلان عن النفس وأن كـان لا غضاضة فى ذلك مـا دمنا ندعو إلى حق وقولة صدق .

ومرجع هذه الحلاوة إلى ما ترك من التنوع فى الاطراد وإلى احساس الشاعـر باللذاذة والحسن احساسـا هو مزيج من الاعجـاب والطلب . خذ البيت الأول مثلا «أنت النعيم» وتأمل اطراد العـاطفة فى مصراعيه وتوازن

قوتها فى شطريه وكيف أنه مع هذا الاطراد والاستواء يفجوُك بالتنوع من حيث لا يصدمك . ويريك وقعين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبارة موزونة على قدر الاحساس لا أكثر ولا أقل ولو أنه كان قال «أنت النعيم لقلبى والجحيم له .. فما أمرك .. إلخ» لأحسست التنافر واختلاف القوة فى الشطرين ولما استعذبت منه قوله «فما أمرك إلخ» بعد لفظة الجحيم . وتأمل فى عقب هذا قول المسكين شكرى يصف جميلا ويبالغ فى حسنه :

كـأنما صـاغكم كـيما يحبكـمو يا فتنة الحسن قد جارى الهوى فينا

يعنى الله فى صدر البيت - فانك تحس إذ تنتقل من الشطر الأول إلى الثانى كأنما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لا اطراد ولا تساوق وكأنما صادف ماء البيت انحدارا مباغتا وكأنك بين مصراعيه على أرجوحة غير مستوية .

وتدبر بيت الشريف الثانى وانظر تحريه الدقة فى العبارة عن مقصوده تحريا أكسب البيت الاستواء والاطراد وتأمل كيف عبر بالشوق حيث يدس العابثون والمقلدون أقوى الألفاظ وأشدها من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والنزاع وغيرها مما لم يكن يعجز الشريف عن حشره فى البيت لو كان مثلهم فساد ذوق وضعف طبع وسليقة .

ولست تأخذ من البيت أكثر من العبارة عن الاعجاب وهو من أخف مراتب الحب وأولها ولا أكثر من الرغبة المعتدلة لا الجامحة ومن اشتهائه

التقبيل اشتهاء لا ينبو مع ذلك فى زمام الارادة فالتناسب تام بين أنواع المعانى والاحساسات المتنوعة التى ضمنها البيت - من إعجاب واحتشام واشتهاء والتشاكل كامل والاستواء بالغ الغاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبلة وسلامة الذوق وحسن المعنى فى الكناية عنها بأنها رسالة لا تبلغ الا للفم ومراعاة ذلك وامتناعه عن ذكرها عن بعد .

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع فقارن قصيدة الشريف الرضي التى يقول فى مطلعها :

يا ليلة السفح إلا عدت ثانية   سقى زمانك هطال من الديم

بقصيدة الطغرائى التى احتذاه فيها وترسم مواقع أقدامه وليس يسعنا ايراد القصيدتين ولكنا نجتزئ بذكر البيت من قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطغرائى مجاراة له . يقول الشريف :

قدرت منها بلا رقيب ولا حذر   على الذى نام عن ليلى ولم أنم

فيأخذه الطغرائى ويحرج صاحبيه أن كان لهما وجود :

يا صاحبى أعينانى على كلفى   بمن تناوم عن ليلى ولم أنم

ويقول الشريف يصف ليلته معها :

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا   على الكثيب فضول الربط واللمم

يشى بنا الطيب أحيانا وآونة   يضيئنا البرق مجتازا على أضم

فيسطو عليه الطغرائى ويصوغهما فى أربعة أبيات مرذولة :

بتنا وبات الصبا وهنا يغازلنا ... وفرشنا الرمل وشته يد الديم
والليل يكتم سرى والصبا كلف ... بنشر ما كاد تطويه يد الظلم
يا نفحة الريح باتت بين أرحلنا ... بالجزع تسلك بين العذر واللمم
نهبت طيبا وأغريت الوشاة بنا ... يا حبذا أنت لو لم تقتدى بهم

ويقول الشريف :

واكتم الصبح عنها وهى غافلة ... حتى تكلم عصفور على علم

فيضعه الطغرائى فى هذا البيت المنحوس :

وغاب عنا غراب البين ليلتنا ... فناب عنه عصيفير على علم

ويقول الشريف :

يولع الطل بردينا وقد نسمت ... رويحة الفجر بين الضال والسلم

فيمسخه الطغرائى هكذا :

وآذنتنا بقرب الفجر ناشئة ... باتت تحرش بين الضال والسلم

ويقول الشريف :

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى ... يلفنا الشوق من فرع إلى قدم

فيأبى إلا أن يعف عفته ويجئ بهذا البيت المنثور السخيف :

ورق لى قلبه القاسى ومكننى ... مما أريد فلم آثم ولم ألم

ويقول الشريف في غير هذه القصيدة :

أنت النعيم لقلبي والعذاب له ... فما أمرك في قلبي وأحلاك

فلا يرى الطغرائي أن يتركه في قصيدته دون مسخ :

طاب الهوى في الجوي حتى أنست به ... فهو المرارة يحلو طعمها بفمي

فيخلط ويحسب الشريف أن هذا قصد . ويقول الشريف :

ولا استجد فؤادي في الزمان هوى ... الا ذكرت هوى أيامنا القدم

والذكرى طبيعية ولكن فساد ذوق المتلد الطغرائي يأبى له الوقوف عند حد الطبيعة :

نريد أن أستجد الحب بعدهم ... والحب وقف على أحبابنا القدم

إلخ إلخ

وشتان بين كل بيت ونظيره .

كلام الشريف مستقيم المعنى والأداء وأبيات الطغرائي لا يسيغها المرء إلا بعناء . والفرق بين الكلامين أوضح من أن يحتاج إلى جلاء . ولعل القارئ قد رأى مما أوردنا أن الحلاوة لا تتفق مع العبث والتكلف ولا مع اضطرام العاطفة ووقدتها .

*

ولسب بواجد شيئا من هذه الحلاوة فى كلام المنفلوطى سواء فى ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة عنها وقد أسلفنا أن وصف أسلوبه بالنعومة أقرب إلى الصواب ولكنه ليس كل الصواب لأنه متجاوز ذلك ذاهب إلى أدنى منه وليس أدنى من ذلك إلا الأنوثة وهى أحط وأضر ما يصيب الأدب ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسيغونها ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم أياها أن يشجعوه ويغروه بالكد فى ابراز ما ليس أقتل منه للرجولة ولا أعصف .

قال المنفلوطى فى مقدمة عبراته :

«الأشقياء فى الدنيا كثير ، وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات علهم يجدون فى بكائى عليهم تعزية وسلوى » .

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا القلب الذى شغل عن مطالب الحياة بالدق عطفا على المساكين أمثاله . ولو شاء لقال أن الناس جميعا كذلك أن كان يريد أن يذهب إلي هذا المعنى لأن كل امرئ طالب محروم . ولكن وظيفة المرء فى الحياة ليست أن يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لأن الأصل فى الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهى قائمة على ذلك ولا سبيل إليها بدونه ، بل هى تنتفى إذا امتنع وبطل .

وهذا شئ يعرفه كل احد ويحسه كل حى . وقد فطن إليه الأقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمى على ذلك واثباته فى مظاهره ومن آيات هذه الفطنة - فطنة عميقة مستولية على النفس - أنهم قالوا أن فى الوجود قوتين متنازعتين أبدا وقوة الشر التى تطغى بالليل وتجلل فى الرعد وتقذف بالصواعق وتبتلى بالجدب والمحل والأوباء والارزاء والفناء وما يدخل فى ذلك ويتفرع منه . وقوة الخير التى تسح بالغيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجود بالخصب والحياة إلى آخر هذه المعانى وقد رمز الفرس للأولى وللثانية بأرمز . ه

ومثل هذا واضح فى جميع الأديان وأن تغيرت الأسماء وتبدلت النعوت وما أبليس أن فكرت الا أسم آخر لاهرمان والارمز لقوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لها .

بل ذلك ملحوظ فى خرافات العجائز وقصصهن حتى لعهدنا هذا وفى أوهام العامة التى تعزو الأمراض إلى فعل الشياطين وفى خوف الأطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير فى دياجيه . ولماذا يفزع الفازع من الظلمة ويتهيب القفار والغاب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ أليس هذا أثرا من الاعتقاد الأول بأن هذه مظاهر قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحياة مبنية على المغالبة ولكن هذا الذى يحسه الأطفال والعامة والذى فطن إليه الأقدمون السذج بغرائزهم وفطرهم السليمة لا يدركه المنفلوطى المسكين الذى يحسب أن ليس له من عمل فى

الدنيا إلا البكاء على الأشقياء كأنما خلق الرجل أضعف من الدودة الجوالة في جوف الثرى .

وعسى قائل يقول : أن هذا منه فرط حب للانسانية وهى فضيلة لا يقبلها رذيلة أن صاحبها بالغ وغلا فى الأمر لأنه انما يغرق فى النزع ليبعد المرمى ويجاوز القصد فى التصوير ليكون أبلغ فى التأثير ويتناهى فى الدعوى استدناءً للغاية القصوى .

هكذا يصنعون إذا أرادوا التضليل أو الاعتذار لأنفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج إلى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لأن الانتصاف منها لا يتأتى إلا باستعانة العقل والعلم عليها . ولكن لا بأس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا إذا ترجمناه إلى لغة العلم ونظرنا إليه فى ضوء الاستقراء الحديث .

ما هى أخلاق المنفلوطى ؟ هى بألفاظه - أو أن جادل فيما ارتضى أن يوصف به من الألفاظ - انقباض عن الناس ووحشة - عفة حتى عن مد يده إلى أبويه - كرم فى الخلق طالما كان سبب فى وصول الأذى إليه - حلم يظنه الظان عجزا وضعفا - صمت طويل يحسبه الناظر عيا - ما رؤى يوما من الأيام ملما بما يفسد عليه دينه أو مروءته صبر على ما يذهب بلب الحكيم ويطير رشد الحليم[1] مات له طفلان فى أسبوع واحد فسكن

(١) قال لسنج الشاعر الناقد الالمانى « من لا يفقد عقله أمام بعض الحوادث فليس له عقل يفقده » .

لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة تهالكه وجدا عليهما - وليس أحقر فى نظره من المادحين له ولا أصغر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه - لو أن الناس جميعا أجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا علي رأى مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته - ليس أبغض إليه من الكذب - يحب حتى العتاب المر والتقريع المؤلم ما دام المتكلم صادقا - يطلب من الناس غير ما يطلب بعضهم من بعض - أن كل فى أخلاقه مأخذ ففى هذا الخلق خلق النفرة من الناس والعجز عن احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم - وطنى بتهالك وجدا فى حب وطنه ويذرى الدمع حزنا عليه . . إلخ .

ولا تنسى أنه جرئ جرأة معدومة النظير فى التقحم على حياء الناس بهذه النعوت الغالية وأنه محب مفرط الحب للإنسانية - فيلانثروبست - وأن أسرته مشهورة بالتقوى وأن أبناءه يموتون فى غير السن التى يكون فيها الاهمال والجهل سبب الوفاة المباشر فى الأغلب والأعم .



فكيف تصف هذه الأخلاق أيها القارئ ؟ أما أن تكون مصدقها فننظر فى دلالتها أو مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رأيا لك .

أخلاق نادرة ؟ نعم ليس أندر منها مجتمعة وأن اتفقت للناس

متفرقة ! ولكن الأمر أكـبر من ذلك وأبعد مدى وأعمق . هاك دلالة هذه الأخلاق الرائعة النادرة فى نظر الدكتور نسبت قال :

«ولما كانت التـقوى فى الأغلب من أعراض الحـالة التشنجيـة وكان الغرور وكثير من الخصائص البسـيطة أو المركبة توجد فى حالة غير عادية من النمو إذا كان الجـهاز العصبى غـير سليم فليس من المدهش أن يكون البخل من أعـضاء ما يـسمـبه (فيرى) أسـرة الأمراض العصبـية . وحب الإنسانيـة - فيلانتروبى - نفـسه مما يجرى هذا المجرى وقـد كان (هوارد) مصلح السجون جبارا فى بيـته وكان له ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الأنانية أيضـا وشرح هذه الحقائق فـيما أسلفنا عليـه القول على الإرادة . وذلك أن بعض مراكـز المخ - واحدا أو أكـثر - تكون قاصـرة عن تلقى المؤثرات أو الاجابة عليها فتسـود فى حيز الادراك طوائف معينة من الآراء أو تصير الغـلبة لنزعات معيـنة مستقلة عن الإدراك . وهناك قـوم - كما يقـول المثل - لا يصـغـون إلى داعى العـقل ولا يحـسون إلا أنفـسـهم ومصـالحهم . وآخرون يبلغ من تضـحيتـهم بالنفس وانكارهم الذات أن يخرجوا - بغـير مبرر مـعقول - عن كل متعـهم وكل ما ملكت أيمانهم لفائدة جيرانهم مثلا . وكلا الفريقين من مرضى الأعصاب كالمعمودين أو المصـابين بالتشنج . ويقـال على العـموم أن الاعـتقـادات الحادة القـوية تصـاحب الضـعف أو المرض أو الاضطراب العـصبـى وعلى العكس من ذلك ترى الموفور الصحة متسامحا بالضرورة متعدد جوانب الرأى » .

فما قول المحتج للمنفلوطى فى هذه الكلمة التى كأنما كتبها صاحبها لما نحن فى صدده وأيهما خير فيما يرى لصاحبه ؟ أن نؤمن بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادرة والخلال الغريبة فيلزمه حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين فى أعصابهم أم نقول كذب فيما ادعاه لنفسه وأن ما به ليس ايثارا وحبا للانسانية متجاوزا به حدود القصد والاعتدال بل أنوثة يتوخاها فى الكتابة وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ومخادعة لهم واستصغار لأحلامهم واستهانة بعقولهم ؟

لسنا نتشبث بأحد الحكمين فليختر القارئ لهذا الكاتب أخفهما وأهونهما فى رأيه فسواء لدينا هذا وذاك والنتجة بعد واحدة .

«الأشقياء فى الدنيا كثير وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم» .

سوداء ما أشدها وظلمة يأس ما أحلكها وأحساس بالعجز المطلق والقصور التا . وما أبعد هذا عن الكآبة الطبيعية المعقولة التى تغشى النفس أحيانا ويكون مردها إلى ما يلقاه المرء من الخطوب فى حياته أو فى علاقاته مع أسرته أو بيئته وأوساطه والتى لا تمنع أن يكون الإنسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر إلى الأمور صادق الوزن لاقدارها . نعم من الطبيعى أن يكتئب مثلا من يحتسب طفلا له كان يشيم الخير من لمحاته ويأنس الرشد من سماته أو من يرى نفسه منبوذا من الناس لفقره أو ضعة

قومية فى أبيه أو من يمنى بالفشل فى بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هذه السوداء اليائسة التى تصور لصاحبها الحياة كأنها مستشفى عجزة ودار أيامى ومفجعين ينقطع للبكاء عليهم - أى تعليل لها من الأحوال التى تكتنفه هو أو سواه ؟ وأى باعث عليها غير عدم التلاؤم بين المرء والبيئة ؟

خذ مثلا لذلك مفتاحا وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذاك فتفشل ولا يخرج الأمر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب فى المفتاح كأن يكون مكسورا أو أن تكون أنبوبته مسدودة أو أن تكون أسنانة بالية وأما أن يكون الذنب ذنب القفل كأن يكون لسانه قد سقط فى جوفه أو أن يكون شئ فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل أو أن يكون الصدأ عطله وأنت فى كلا الاحتمالين لا تستطيع أن تفتح القفل ولكن هناك احتمالا ثالث وهو أن تنحرف بأنبوبة المفتاح عن حديدة القفل أو أن تديره فيه مقلوبا أو أن لا تبلغ بأسنانه اللسان ولا يكون العيب فى هذه المرة راجعا إلى القفل أو المفتاح بل إلى الخطأ فى عملية الفتح .

أهبنى غضبت . فالأمر فى هذه الحالة لا يعدو أحد فرضين : أن يثير غضبى رجل مثلا بعمل مسيئ فإذا كان أحساسى مناسبا لدرجة الاساءة ومتكافئا معها كان ذلك منى طبيعيا ولكن لنفرض أن الأمر جاوز المعقول وأن الغضب هاجه ما ليس فيه اساءة وهو الفرض الآخر فنعود إلى مثال المفتاح والقفل ونقول أما أن تكون الظواهر الخداعة أو الأنباء الكاذبة قد حملتنى على اعتقاد القصد إلى الاساءة وتعمد الإيذاء فيثير فى

نفسى ما يحيط بى مثل ما يثيره الايذاء لو كان واقعا ويكون عدم التلاؤم بين الإحساس والعمل راجعا إلى الوسط والعيب عيب القفل - أو يكون العمل فى ذاته غير مقصود به إلا الخير كأن يرتب لك خادمك أوراقك فى غيابك ولكنك لما لقيت فى يومك من النصب أو لعسر هضم تعانيه تخرج عن طورك ويبلغ غضبك مبالغا لا يتناسب مع الظروف - أى لا يلائمها وفى هذه الحالة يكون عدم التناسب الاحساس والظروف مرجعه إلى عله فيك والعيب عيب المفتاح إذ كان قد هاجك مالا يهيج فإذا أصبحت فى اليوم التالى وقد سرى عنك وسكنت نفسك وهدأ ثائرك وبدالك تهورك فقد أعدت التوازن بين الإحساس والحادثة ولكن إذا ظل غضبك فى الصباح كما كان فى المساء وطردت الخادم فإن المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب بين الاحساس والحادثة وتصبح عجزا عن إعادة التوازن بينهما يدل على أن «عملية» الموازنة أو الملاءمة مضطربة .

وهذان المثلان ينطبقان على عدم التلاؤم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتفاء ذلك راجعا إلى علة عضوية أو إلى أن للبيئة أحوالا ليس لها المرء بكفاء أو هو يجهلها أو لا يعرفها معرفتها وفى كلتا هاتين الحالتين يكون العيب فى القفل أو المفتاح ولكن إذا كانت البيئة ليس فيها من الأحوال إلا ما يستطيع أن يكافحه الرجل العادى وكان المرء قادرا على الوجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا أن يلائم بين نفسه وبينها فإن الفشل فى هذه الحالة لا يكون مرجعه إلى عدم كفاية أو عيب فى هذا العامل أو

ذاك بل إلى فساد عملية الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد تصحبه أبدا ثلاثة مظاهر : اضطراب الأجهزة العصبية والاضطراب فى السلوك والاضطراب فى الإدراك ويدخل فى هذا ما يعتور الفكر والاحساس والشعور بالذات وبعلاقة المرء بالوسط وهى أشياء على أوضح ما تكون فى قصص المنفلوطى كما سترى فيمايلى :

العبرات «قصة اليتيم»

ونعود بعد هذا الإيضاح إلى ما كنا بدأناه من الكلام على عبراته فنقول أنها على نوعين : منها طائفة مترجمة عن أمثلة الضعفاء الذاهبين مذهب التصنع والافراط فى الرقة والأنوثة والباقى موضوع وهو فى كليهما ملفق مستحيل التلفيقات - حتى فيما هو مترجم منها يأبى له ذهنة المتنكس إلا أن يغير ويبدل تبديلا كبيرا الدلالة . وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته فى كل قصة تقريبا بينما هو جالس فى مكتبه الذى كأنما صار ملتقى كل صوت ولا قط كل نبرة وموجة أثيرية إذا به يسمع أنينا أو حنينا أو صوتا خافتا أو توجعا أو زفيرا أو نهيقا أو شيئا من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شاءت له تلفيقات أوهامه ومنكرات أحلامه - من العمر ملقى يتوجع على سريرا أو حصير فيذهب إليه ولا يزال به حتى يقص عليه أمره ويروى له خبره ويكشف له عن مظاهر أنوثته ثم يموت الفتى - وهو ما لابد منه فى كل حكايات المنفلوطى فما أعظم شؤمه على أبطاله - فيغسله ويلفه فى الأكفان ويحمله إلى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمعة من دموعه التى كأنما لها «زر» فى تضاعيف ثيابه يضغط عليه فتنحدر وتسيل وأن كان لم يبك على طفليه اللذين ماتا فى أسبوع واحد !!

فبالله ما لهذا الحانوتى الندابة وللأدب الذى هو حياة الأمم وباعث

القوة فيها ونافث الحرارة فى عروقها وحافزها إلى أجل المساعى ؟ لقد كان المنفلوطى يستطيع أن يتعظ بمصير أبطاله المخنثين - أن جاز الجمع بين النعتين - وبموتهم فى شرخ الشباب وميعة العمر وكان فى وسع قرائه أن يعتبروا بهم لولا سقم أذواقهم ومرض نفوسهم ولكن لكل كاتب قراءا على شاكلته منسوجين على منواله وأن أخوف ما نخاف على هذه الأمة أن تجد هذه الجراثيم ثرى صالحا فى نفوسها فى وقت هى أحوج ما تكون فيه إلى من يبذر فيها بذور القوة ويدفعها إلى تطلب الحياة العالية .

كتب جيته الشاعر الألمانى رواية «أحزان فرتر» وهو فى التاسعة عشرة من عمره أى قبل أن ينضج ويستكمل الرجولة فراجت واشتهر أمرها وانتشر بها الصيت إلى كل ركن وذهب بها السمع فى كل زاوية فى العالم الغربى ونقلت إلى جميع اللغات الحية ولكن واضعها الذى كان حقيقا أن يزهى بهذا النجاح وأن يفتتن بما وفقت إليه باكورة أعماله من الذيوع واستفاضة الذكر وأن يغريه ذلك بالمضى فى هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة - ظل إلى أن مات لا يندم على شئ ندمه على وضع هذه الرواية ولا يخجل من عمل له خجلة منها حتى لقد تمنى لو استطاع أن يجمع كل نسخها من أيدى الملايين من قرائها ليوكل بها النار !!

ولماذا كان يخجل منها ويشعر أنها وصمة لرجولته ؟؟ لأن فرتر بطلها انتحر من أجل خيبة فى ميدان لهو وغرام ! والحياة أجل من أن

يقطع المرء حبلها لخيبة أمل كـائنا ما كان أو أن شئت فقل هى أهون من أن يكبر المرء أمر سعودها ونحوسها إلى هذا الحد. وأن مما يصم الرجولة ولا شك أن لا يكون صـحيح الإدراك للأمور وأن لا يسـتطيع أن يلابس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين الوسط .

فـأيـن تخنـث العبـرات مـن هـذه الرجـولة الضـخمـة التى تقـدر واجـب الحياة وتعـرف فرائضها ولا تفر منها ؟ رجـولة لا تقول فى الدنيا اشقـياء كثـيرون فلأبك عـليهم ولا نـدب سوء حظهم ونـحس طالعهم ولأنعهـم إلى الناس بل تقوم الحـياة طلوع ثنايا ومـصارعـة منايا والناس كلهم ساعـون فمن مخطئ ومصيب وناهـض وكاب عاثـر وناجـح مـوفق وخائب مجـهود وكلهم يقضى حق الحياة عليـه ولا يمطلها دينها بل يؤديه إليـها من دمـه وقوتـه وعـمـره وهـو مشكور أن أفلح ومعـذور أن أخفق .

جيـته - تلك الصـخرة القـائمة فى لج الحـياة تناطحـها كل مـوجة وتلطمها كل ريح وهى وطيدة لا تـلين ولا تساقط على الصدمات والأهوال - هو مـثـال الرجل الخليق بالحـيـاة ، هو الـبطل الذى قـرت عنده ثورة «كارليل» الهـائج فى ميادين الفكر لا يعرف السكون ولا يـذوق طعمه الا بالتمنى حتى لم يسعه لما ترجم احدى روايات جيته إلا أن يخضع للجامه ويستفيد لعنانه وإلا أن يخرج عن طبيعته - أن صح هذا التعبير - وينسى

جموحه مع المعـانى وركضه فى حلبة متوعرة من الاداء فجـاء أسلوبه فيها سلسا كالماء الرقراق المتحلر فى سهل دمث من الأرض .

ولعمرى ما أبعـد البون بين أدب تمليه الحياة المتدفـقة وصحة الإدراك وبين كتابة مـيتة مملوءة صديدا وبلى شائعـا فيها كهـذه العبرات والنظرات والسخافات والتلفيقات والمنكرات التى لا نعـرف لها مثيلا فى كل عصور الأدب التى مرت بالأمم قاطبة من آرية وسامية !

خذ مثـلا لذلك قصة «اليتيم» التى صـدر بها عبراته وموضـوعها أن فتى فى العشرين من عمره مات أبوه وتركه فقيرا لا يملك شيئا فكفله عمه وأكرمه وأحسن إليه أحسانه إلى ابنته التى كانت فى مثل عمر الفتى فشبا عشيـرى صفاء وخدنى مـودة ووفاء ، ثم ذهب كل أم ولم تكن تعلم أن الفتى يحبها لأنه هو نفـسه لم يكن يعلم بذلك ويدريه ومصداق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطى .

ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمى فى نفسى ودا وأخاء أو حبا وغراما ، ولكنى أعلم أنه ان كان حبـا كان فقد بلا أمل أو رجاء فما قلت لها يومـا أننى أحبـها لأنى كنت أضن بها وهـى ابنة عمى ورفيـقة صبـاى أن أكون أول فـاتح لهذا الجـرح الأليم فى قلبهـا ، ولاقدرت فى نفسـى يوما من الأيام أن أصل أسـباب حيـاتى بأسبـاب حيـاتها - ولا حاولت فى ساعة من الساعات أن أتسـقط منها ما يطمع فى مثله المحبوب ولا فكرت يوما أن استـشف من وراء نظراتها خـبيئة نفسـها لا علم أى

المنزلتين أنزلهـا من قلبها منزلة الأخ فـاقنع منها بذلك أو منزلة الحـبيب فأستعين بارادتها على أرادة أبويها» .

فما ذنب امـرأة عمه إذا كان قد شاء أن لا يتكلم أو يقـدر أو يتسقط أو يستشف ما يستشفـه كل محب ويتسقطه ويقدره ويقوله ؟ وهو يعلم أن لا لوم عليها فى جهلها ما لو كانت علمـته لكان لها شأن آخر معه ، ولا يعقل أن يحسب المرء أن الناس أعرف منه بخبيئة نفسه .

إذن فليس فى رغبـة امرأة عمه أن تزوج ابنـتها شئ يستـدعى منه ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرد والانسلال تحت الدجى طلبها إليه أن يتحول إلى منزل لها غيـر الذى يسكنه على أن تقوم له بنفقاته فيه حرصا على الفـتاة أن يريبها شئ من وجـوده إلى جانبها عند خطيـبها . فانه موقف معقول واحساس طبيعى . ولاشك أن فى هذا الطلب غضاضة . ولكن قليلا من التفكير بعد ليلة أو ليلتين كان خليـقا أن يجعله يسيغها . فلمـاذا انسل وآثر الاسـتشـراد والرحيل فـى البلاد ، ثم لماذا بعـد أن سكنت نفسه بلغ من وقع الخبر الذى حـملته الخادمة إليه أن مات! أليس الواضح البين أنه عجـز عن الملاءمة بين نفســه وبين هذه الأحوال والظروف عجزا ليس مرده لا إلى آفة فى جسمه ولا إلى الظروف !

وهذا بعد ليس فى شئ من الحب الطبيعى الذى يحس حامله بالغاية منه احساسـا واضحا ويدركه أتم إدراك ، والذى لا يفتـأ يتطلب التعارف الجثمانى الكفيل بحفظ النوع . لا كهذا المسكين الذى لا يدرى أهو يحب

ابنة عمه حب الأخ لأخته أم حب الرجل للمرأة . ولا يقدر فى نفسه أن يصل أسباب حياته بأسباب حياته ولا يحاول أن يعرف ما عندها له أو يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام لا يرضى من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم ولا يروق من تعلموا من هذه القصص أن يعدوا الهوى العذرى الذى لا وجود له فى هذه الدنيا الدنية مثلا ليس أعلى منه للحياة - واللين الذائب والنحول والضنى من دلائل سمو النفس - والانقياد للمرأة كالكرة فى يدها والقعود تحت حكم نظراتها وايماءاتها وحركات حاجبيها وشفتيها ويديها ورجليها من علامات الرجولة وآيات الفتوة والبطولة دع عنك الاضطرابات البهلونية من جسمية وعقلية والزفرات والانات والدموع وتقليب الأكف والذهول والنحول والاصفرار والاطراق ونكت الأرض والكلام الذى لا يقوله ولا يفهمه عاقل والنظرات الشاردة البلهاء فى المجالس والمحافل وسهر الليل ورعى النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل أطراف الأصابع للأشباح والخيالات وتحميل الرياح أنواع السلامات والتحيات الطيبات المباركات . .

لا . لا يرضى هؤلاء كلامنا وأن كان الحقيقة لأنهم لا يطلعون على الحياة إلا من منظار المنكرات التى تصفها لهم هذه الروايات ولا يفكرون أو يحسون أو يعملون الا على مثال أشخاصها ولا غرابة فى ذلك فان من لا تؤهله تجاريبه أو معارفه لتصحيح خطأ الروائى لا يسعه إلا أن يسلم بصدقه ويستمد رأيه فى الحياة من كتابته ويتخذ أشخاصه قدوة تحتذى

وتقلد . وهذه نتيجـة يعلمها من له أقل المام بعلم النفس وبتـأثير الايحاء لاسيما فى الضعفاء والشبان والنساء ومرضى الأعصاب .

واذكر على سبـيل التمثيل لتـأثير هذه القصص المنحـوسة انى أعرف رجلا بلغ من استيلاء «سنكلر» وضروب احتياله على نفسه وهواه فى صدر أيامه أن ظل سنين وليس له غـاية يطلبها سوى أن يكون عـلى رأس فرقة من «البوليـس» السرى يطارد المجرمين . ذلك لأن هذه القـصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب فى نضوج الاحساسات الطبيعية فى نفوس الشبان واخـصها الحب بتنبيهها مركز التـوليد قبل الأوان وقبل أن يكون الباعث على الحب هو النضوج الجنسى فى الفرد .

أسلوب المنفلوطى

أما أسلوب المنفلوطى فى هذه القصة وفى سواها فأسلوب رجل لا يبالى من أى مدخل دخل على القارئ مادام يقدر أن سيصل منه إليه ولا أى بلاء يهديه فى احتياله ويقحمه عليه وإذ كان يعرف من نفسه التلفيق والتصنع فهو لا يزال يعالج الاقناع والتأثير بضروب من التأكيد والغلو والتفصيل وغير ذلك مما ليس أدل منه على الكذب والتزوير لما وقع فى وهمه من أنه يكسب الكلام قوة وشدة لا يفيدهما أن يلقيه ساذجا ويدعه غفلا وأول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعه بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه أنه من المحسنات اللازمة للصقل وأن العبارات بدونه تكون مبتورة ، والجمل لا يجرى فيها النفس إلى أخره دون توقف واعتراض . ومع أن قصة اليتيم فى تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فان فيها أكثر من ثلاثين مفعولا مطلقا ليس من بينها واحد لا يكون الأسلوب أسلس وأطبع بدونه . لكنه ذهب إلى المبالغة فى كل شئ وآلى أن يجاوز كل حد معقول طلبا للتأثير من طريق الافحاش فى التأكيد فلم يكن له بد من هذا المفعول المطلق الذى لا يكاد يمر به القارئ فى أى كتاب يفتح من كتب الأدب .

ومعلوم أن الكلام لا قيمة له من أجل حروفه فان الألفاظ كلها سواء من حيث هي ألفاظ . وانما قيمته وفصاحته وبلاغته وتأثيره تكون من التأليف الذى تقع به المزية فى معناه لا من أجل جرسه وصداه ، وإلا لكان ينبغى أن لا يكون للجملة من النثر أو البيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك أن الألفاظ ليست إلا واسطة للاداء فلابد أن يكون وراءها شئ ، وأن المرء يرتب المعانى أولا فى نفسه ثم يحذو على ترتيبها الألفاظ وأن كل زيادة فى اللفظ لا تفيد زيادة مطلوبة فى المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هذيان يطلبه من أخذ عن نفسه ، وغيب عن عقله ، وأبلغ من ضلال الرأى أن راح يحسب أن تأليف الألفاظ تأليفا طبيعيا مطردا خاليا من العكس والقلب منزها عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده المزية والتأثير . وينسى المسكين أن كان كلمة يستطيع القارئ أن يسقطها بدون خسارة فى المعنى أو تعويق لتحدر الاحساسات أو أفقار لغناها - كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فإن العالم أغنى فى باب الأدب من أن يحتمل هذا الحشو ويصبر عليه وليس شئ أحق بأن يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب أضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشأن والحال لم يحيه من المزايا غير حبك الأداء ، ولكن هذا كلام لا يفهمه المنفلوطى لأن اللغة عنده ليست الا زينة يعرضها وحلى يخيل بها لا أداة لنقل معنى أو تصوير احساس أو رسم فكرة . ومن أين له أن ينزل اللغة هذه المنزلة وهو لا معنى فى صدره ولا فكرة فى ذهنه .

وهذه أمثلة للمفعول المطلق فى كتابة المنفلوطى وكلها لا ضرورة إليها ولا داعى إلا من الرغبة فى تأكيد الغلو الذى يتطلبه من يحمل نفسه على التلفيق والتصنع أو ما يجرى هذا المجرى من الأغراض الأخرى .

١- وقلت لابد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه (ذوبا) .

٢- فيتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض .

٣- ثم لم أزل أراه . . . . . أو منطويا على نفسه فى فراشه يئن (أنين) الوالهة الثكلى .

٤- وأتمنى لو استطعت أن أدخله (مداخلة) الصديق الصديقة .

٥- وقد بلغ الأمر (مبلغ) الجد .

٦- وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجا) شديدا .

٧- فشعرت برأسه يلتهب (التهابا) .

٨- وإذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه (موجا) - يصف نحوله.

٩- فاستفاق قليلا ونظر إلى (نظرة) عذبة .

١٠- فتنهد طويلا ونظر إلى (نظرة) دامعة .

١١- أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك .

١٢- فأنزلنى من نفسه (منزلة) لم ينزلها أحد من قبلى .

١٣-١٥- فعنى بى (عنايته) بها وأرسلنا إلى المدرسة فى يوم واحد فأنست بها (أنس) الأخ باخته وأحببتها (حبا) شديداً .

١٦- ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها (عقدا) لا يحله الا ريب المنون .

١٧- فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح فى كأسها .

١٨- ثم انسللت من المنزل (انسلالا) من حيث لا يشعر أحد .

١٩- وهكذا فارقت المنزل . . . (فراق) آدم جنته .

٢٠- فرحلت (رحلة) طويلة .

٢١- هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم له مكانا ثم دارت بى الأرض الفضاء - يعنى غرفته - (دورة) سقطت على أثرها فى مكانى .

٢٢- فحزنت عليها (حزن) الثاكل على ولدها .

٢٣- وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت أن كبده قد أرفضت .

٢٤- وأن الضربة التى أصابته قد سحقته (سحقا) .

٢٥-٢٦- أشعر برأسى يحترق (احتراقا) وبقلبى يذوب (ذوبا) .

٢٧- ثم انتفض (انتقاضة) خرجت نفسه فيها إلخ .

وقد عددنا له إلى الآن ٥٧٢ مفعولا مطلقا ولا ندرى إلى أى رقم

يرتفع العدد إذا استقصينا وانما حملنا على تجشيم أنفسنا هذا الحساب غرابة هذا الكلف منه بصيغة المفعـول المطلق . ولنعرف هل الشأن واحد فى كل كتابته أم هو اتفاق ومصادفة فى هذه القصة وحدها فإذا به قد استعمل هذه الصيغة أكثر مما استعملها العرب جميعا !

ولعل القارئ لاحظ فيـما أوردنا من الأمثلة كثـرة النعوت والأحوال كقوله «خرجت منه - يعنى المنزل - شـريدا طريدا حائرا ملتاعا» وقوله : «تركنى فقيرا مـعدما لا أملك من متاع الدنيا شـيئا» وقوله وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس «قريحة معذبة» وقد يعلم القارئ أو لا يعلم أن هذا الاسـراف فى النعوت مـن دلائل الضعف وفـقـر الذهن لأن الكاتب انما يرصها واحـدا بعد واحد وفى مرجوه أن يوافق واحـد منها محله وأن يقع فى مكانه ولكن المطبـوع يعرف ماذا يأخـذ وما يلقى وينبـذ وانما كان هذا الاكثار من الصـفات من علامات الوهن لأن الكاتب الضـعيف لا يستطيع أن يتحرى الدقـة إذ كان لا يدرى أى الرموز اللفظية أكفل بالعبـارة التامة عن المعنى المراد فهو من أجل هذا يستعـمل اللغة جزافا ويكيل الألفاظ بلا حساب مـستعينا على الاخـتيار بالأرتباط الغامض بـين الألفاظ فى ذاكرته وبرنين الأصـداء المتقطعـة للأصوات المألوفـة . وهناك أمر آخـر وهو أن الترادف فى اللـغة من الأكاذيب الشـائعة إذ ليس ثم فى الحـقيـقة لفظان يؤديان معنى احـدا على وجه الضبط وما من مترادفين يزعم الزاعـمون أنهما سواء فى المـدلول لا وبينهما مقدار من الاختـلاف قل أو كثر ، فإذا

ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعانى متشابهة المدلول كان لنا أن نسأل أيها يعنى على التحقيق وأى مدلولاتها المتفاوتة يقصد إليه ويريد منا فى فهم المراد أو تكوين الصورة أن نعتمد عليه ؟ لأن السرد لا يستقر به معنى على حد ولا يعين على التصور اجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن فى هذا مثله فى التصوير والرسم فكما أن المعول فيهما ليس على كثرة الألوان بل على اصابتها مواضعها ووقوعها مواقعها قلت أو كثرت وصحة التأليف بينها كذلك فى الكتاب ليست العبرة بتعدد النعوت ولكن بمبلغ ابانتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

أترى سيسمعنا السخفاء وأشباههم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحية أن هذا ليس سوى غنى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأى حماقة وضلال لا يتعلقون ؟ ولكن ههنا أصلا يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق إليه وأن كان على هذا لا يحتاج إلا إلى أيسر فكرة وأدنى نظرة وهو أن اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا شئ فى ذاته ولا معنى له فى نفسه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف وبضم الألفاظ بعضها إلى بعض كاللون فى ذاته لا يفيدك صورة ولا يعطيك شيئا إلا بعد أن يأتلف مع سواه ويجرى كل إلى أخيه مجراه وليس لغير ذلك مساغ فى العقل أو مجاز إلى الفكر وقيام فى النفوس فلا كتابة حتى يكون معنى هو المزجى لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفى جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئة وحسنة أو قبيحة سخيفة ، والا فأن أحدنا لا يعجزه أن يعمد إلى معجم أو كتاب مترادف فيأخذ منه ويسرد

وليست كثرة الألفاظ المستعملة المسوقة من شأنها أن تدل على كثرة الاطلاع وسعة الحظيرة وطول الباع وانما التأليف والتـركيب والافتنان بهما والقدرة عليهما هى آية هذه السعـة والطول والكثرة فلا تجعل بالك إلى الألفاظ إذا شئت أن تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ، ولكن أجعله إلى طريقة تأليـفه الكلام فان رأيتـه يدور منها فى حلقـة لا يكاد يعدوها حتى يكر إليها فاعلم أنه ضيق المضطرب محدود المجال ، وضئيل الحال، وألق بعد ذلك ألفاظه من أى حالق شئت .

وكذلك المنفلوطى لا يكاد يفوتك أن تقرأ له هذا التركيب : «قعدت به حـزينا منكسـرا ومـا على وجه الأرض أحـد أذل منى ولا أشـقى» - «ومارئى مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكيا» أو هذا التأليف «فما هو أن مرت أيـام الحداد حتى رأيـت وجوها غيـر الوجوه» - «ومـا هى الا أيام قلائل حتى ضر الدهر بينهما بضرباته» ونحن فانما نمثل ولا نستقصى ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المصال لوجد له مخرجا من هذه الدوائر - والألفاظ كالحجارة فى محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من أمرها فى راحة وانما الكتابة مجسها الحـصافة التثبت فى انتقاء الألفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تأليفها والمزاوجة بينها .

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطى ذاهب مذهب التـخنث فى كتابته وملفق مستـحيل التلفيـقات ، وأنه لا يزال يعالج التأثيـر بالتطرى والرخاوة فى العاطفـة المتكلفة والاحـساس المصطنع وبالغلو والتـأكيـد فى صوغ الكلام

وتصـوير المسألة فـان بنا بعد هـذا أن ننظر كيف يسـوق القصـة أى فى الأسلوب بمعنى الطريقة التى يجرى عليها فى تناول الموضوع وعرضه .

وقد ألف الناس لطول عـهدهم بالمقلدين أن ينظروا إلى الأسلوب من حيث هو تأليف لـلكلام على معانى النحـو ونحن نريد أن نلقى على هذه القردة درسـا فـيما يفيـده صحة النظر واعـتدال ميزان العـقل وسـعة أفق الفكر . وأنا لنعلم أنه لن يفيـدهم الا الحسرة على ما أضاعـوا من العمر وجنوا من السـوء والخبـث فى هذه الأمة التى نكبـت بهم على قدر سـدر أعينهم وضلال أفهـامهم ، ولكنا ما قصدنا قط إلى أمالتهم عـما هو فيه وأن كانت الخـزائم حاضرة بل تبصـير من له طبع من النشئ إذا قدحـته ورى وهدى من له قلب إذا أريته رأى .

ونمهد لما نريد تبـيينه بمثل من التـصوير محـسوس فان هنا قـوما لا يدركون الشئ أو يصـدمهم فنقول أن ههـنا فى ناحية من الطريق شـرطيا واقفا يرقب الحركـة ويلاحظ العادين والرائحين والراكبين والراجلين ويمنع الزحام ويقـتاد المتنزين إلى الـشر إلى أى هو تابع له من «الاقـسام» تراه وتزن التبعة التى عليه والسلطان الذى فى يديه وتقيس النصب الذى ينبغى أن يعانيه إلى القدرة اللازمة التى لا تؤاتيه فـتعطف عليه فى محنته وترثى له فى وقفـته وتصوره وأنت ناظر إليـه من جانب الجد الذى لا هزل فـيه وفى ضوء الواجب مكابدا أوامـره ونواهيه - هذا وربما ذهبت تعتـبره مرة أخرى من الجانب المضـحك فى هيئته وفى تراخى همته وبـطء حركته أو

عدم التلاؤم والتناسب فى بزته ووفاء قامته وتخاذله فى مشيته وتثاوبه واستناده إلى الجدران وذهول نظرته أو حواره مع الباعة وتأتيه إلى غايته وتقطيبه جبينه وهو يدفع فى جذبته أو تواريه فى الدروب ووراء العمد إذا جد الجد بالطعام فى «نقطته» إلى آخر ذلك . ثم تصوره صورة تركبه فيها بالدعابة فأنت قد تناولت موضوعه من جهتين متباينتين إذ كنت قد نظرت إلى أمره وحاله نظرتين مختلفتين كنت فى الأولى جادا وفى الأخرى هازلا وجعلت الصورة فى كل من المرتين معبرة عن اعتبارك أياه ناطقة بالغرض منها فوجهة النظر إلى الموضوع والطريقة التى تتحراها لغايتك هى ما نسميه أسلوب التناول ولا شبهة فى أن المرء ينظر إلى الأمور من جهات معنية - من ناحية الجد والهزل أو المألوفية أو الشذوذ أو الجلال أو الحقارة وليس يعنينا من أى ناحية عالج المسألة وانما الذى يعنيا مقدار ما فى سعيه من صدق السريرة وصحة الإدراك ودرجة النجاح ومبلغ التغلب على الصعوبات . ونقول مبلغ التغلب على الصعوبات لأن القصصى لا تظهر قدرته فى المواقف الهادئة السلسة وانما تستبين وتتضح حيث تكون أشخاصه تحت ضغط العواطف القوية وفى المواقف التى تتطلب أدق النظر وأشق التمييز وأصح العبارة .

فكيف تناول المنفلوطى موضوعه وما هى الفكرة العامة التى نظر بها فيه ، وبماذا أعد لها وكشف عنها وهل اللغة التى استعملها صادقة وهل السلوك الذى عزاه إلى أشخاصه مما هو معهود فى الآدميين كما

نعرفهم وما مبلغ اسرافه أو قصده وما مقدار خبطه وتخليطه أو اصابته وسداده .

عسى قائل يقول : أنك تضعه فى ميزان لم ينصبه لنفسه ولا كان له باله ولا جرى له هو وأمثاله فى خاطر . وردنا على هذا المحتج أن الأدب لا شأن له بهذا الاهمال أو الجهل والاعتداد فيه إلا بالصلاحية للحياة . وهى هى ميزانها أبدا واحد ولا رفق فيه ولا هوادة فإن خفتم على صاحبكم أن تشيل به الكفة فأخرجوا به من هذا الميدان واذهبوا محمودين مشكورين على النكوص . فان ابيتم إلا أن تعدوه كاتبا أديبا فلا مسمح عن قذفه فى هذا الاتون الحامى لنعرف من أى معدن هو . وأنتم بعد خلقاء أن ترضوا لصاحبكم ما نرتضى لأنفسنا مختارين مرتاحين فانا نعيش فى عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير ، وشك مخيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيفات عصر تعتصر فيه العقول ويستنفذ فى حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوالمنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطا زاخر العباب يضطرب بنا متنه فى عشى ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظمأ إلى المعرفة والحنين إلى النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب فى أثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه يحسبون أن الأدب والفلسفة - أو النظر المخلص الصحيح أن شئت - لا يتفقان وأن الغائص على الأسرار الطالب للحقائق لا يكون أديبا وأن

الأديب لا يكون متفقدا ورائدا وأن ما وصل الله من الخصائص . والقة يجب أن يقطعه الانسان ويعادى بينه ولكن عهد الظواهر والزبد والقشور وقد سقط فى هوة الأبد وجاء زمننا الشادى بعلاقة الطبيعة بنفس الآدمى الراكض بمداركه من ميدان إلى ميدان ، والمريغ وراء السماء سماء وبعد الآباد ابادا ، المصيخ إلى صوت اعتلاج موج الزمن المنكسر على صخور ذلك «العالم الآخر» .

ونعود إلى صاحبكم المنفلوطى - وما أهول هذا الانحدار - فنقول أن فيما أسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شخصها لكفاية وفوق الكفاية . ولقد كان حسب سوانا فى غير هذا البلدان يشير بطرف القلم إلى ما فصلناه ولكنا وطنا النفس على الجلد ورضناها على السكون إلى ما تكلفنا أياه حداثة العهد بالأدب الحى .

يحسب المنفلوطى أن تكلف التفصيل فى المحسوسات مظنة الاجادة وفاته - وأنى له أن يفهم هذا - أنه لا يعجز أحدا أن يقول لك هل فلان هذا الذى تراه طويل أم قصير ونحيل أم بدين وهل فى يده كتاب أم عصا ونائم هو أم جالس ؟؟ وإنما محك القدرة فى تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة لا ظواهر الأشياء وقشورها وفى رسم الانفعالات والحركات النفسية واغتلاج الخوالج الذهنية وما هو بسبيل ذلك .

أما تفصيل المنفلوطى فلا خير فيه بل الخير فى اجتنابه وتحاشيه وليذكر القارئ أن هذا المسكين يروى عن نفسه ويحدث بما يدمى أنه كان

شاهده من غرفة مكتبه المطلة على غرفة الطالب - وهو بطل القصة - فى البيت المقابل له فى الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن أنه قد استحق المنزلة الأولى بين شيوخ الرواية .

«كنت أراه من نافذة غرفة مكتبى وكانت مطلة على بعض نوافذ غرفته فأرى أمامى فتى (شاحب) الوجه منقبضا جالسا إلى مصباح منير فى احدى زوايا الغرفة (ينظر فى كتاب أو يكتب فى دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درسا) فكيف استطاع هذا التمييز بين الاستظهار والاعادة وكيف رأى شحوب لون الوجة مع هذا البعد ؟ ولكن هناك ما هو ادهى :

«عدت إلى منزلى منذ أيام بعد منتصف ليلة قرة من ليالى الشتاء فدخلت غرفة مكتبى لبعض الشئون فأشرفت عليه فإذا هو جالس جلسته تلك إلى مصباحه وقد أكب بوجه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت أنه لما آلم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب إلى فراشه وسقطت به فى مكانه فما رمت مكانى حتى رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان من البكاء وإذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها إلى بعض ثم لم يلبث ان عاد إلى نفسه » .

وهى لا تفيد ولا يمكن أن تفيد شيئا سوى أنه يريد أن يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارئ ثم هل تدرى أنه أحس أنه موشك أن يقول شيئا مستحيلاً ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين

النافـذتين عرض الشـارع وهو مـهمـا ضاق وحـتى لو كـان الوقت وقت الظهيرة المتقدة الملتمـعة لا يسمح بأن يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة أو جولان العبرة فى الجفن وقد شعـر المنفلوطى باستحالة ذلك ولكنه لمصابه لم يجد ما يخـرجه مما أوقع نفسه فيه من تكلف المحـال غير أن يقول أن الفتى رفع رأسه ! كان هذا يكفى لمكينه من ناصية المستحيل !

وأنت أيها القارئ هل قنعت أم نزيدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحـبك عقل فـخذ ثالثة الاثافى : ذهب المنفـلوطى إليه لأنه سمع «فى جوف الـغرفة أنه ضعيـفة مستطيلة» ووضع يده علـيه فعلم أن الفتى محموم .

«فأمررت نظرى على جـسمه فإذا خيال سار لا يكاد يتـبينه رائية وإذا قميص فضـفاض (واسع) من الجلد يموج فيه بدنه موجـا فامرت الخادم أن يأتينى بشـراب كان عندى من أشربة الحـمى فجـر عنه منه بعض قطرات فاستفاق قليلا» .

ابنا حاجة إلى التعليق على هذا الهراء ؟ لقد سمعنا بمن لولا محادثته اياك لم تره وبالجسم لو تؤكأت عليه لانهـدم فاما القميص من الجلد يموج فيه البدن فلم نكن نتوقع أن يسمعه أحد إلا فى مستشفى المجاذيب ! ومع كل هذا النحول احتاج صاحبكم المنفلوطى أن يمر نظره على جسم الفتى .

ولست أحب أن انغص على القـارئ كتـابنا بكثرة مـا أورد من هذه

التلفيقات المنكرة ولكنى أسأله الصبر على هذه الجملة أيضا - دعا المنفلوطى الطبيب فجس المريض وهمس فى أذنه أن العليل مشرف على الخطر - ولا عجب أن يصير إلى هذا المصير الخبيث بعد أن جرعه المنفلوطى - شراب حماه - ثم دفع إليه المنفلوطى الأجر وأحضر الدواء .

«وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقية الدواء مرة وأبكى عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر» .

والعادة أن الأشربة يسقاها المريض بعد فترات (زمنية) يحددها الطبيب ولكن الظاهر أن طبيب المنفلوطى أمره أن يعطيه الدواء بعد كل ... بكاء !؟

ومع ذلك فإذا لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفلوطى مات له طفلان فى أسبوع واحد «فسكن لهذا الحادث (سكونا) لم تخالطه زفرة ولم تمازحه عبرة على فرط حبه لهما وتهالكه وجدا عليهما » ؟؟؟ وكذلك كأن سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس إلى الناس يحادثهم حتى كان المرزوء سواه .

وبعد أن استفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب المنفلوطى عليه وابلا من الأسئلة وهو يعلم أنه فى سياق الموت (فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآنى فقال أنت هنا ؟ قلت نعم : أرجو أن تكون أحسن حالا من ذى قبل . قال أرجوع أن أكون كذلك . قلت : هل

تأذن لى يا سيـدى أن أسألك من أنت وما مقـامك وحدك فى هذا المكان وهل أنت غـريب عن هذا البلد أو أنت من أهليـة وهل تشكو داء ظاهرا (ياللعمى) أوهمـا باطنا وهل لك أن تحدثنى بشأنك وتفـضى إلى بهمك كمـا يفضى الصديـق إلى صديقه فـقد أصبـحت معنيا بـأمرك (عنايتك) بنفسك ؟

ومن الغريب أن الفتى لم ويصفعـه ماذا كان يخشى المسكين لو فعل وهو ميت لا محـالة - بل شرع يقص عليه تاريخ حيـاته الذى انتهى بين يدى هذا الحانوتى بعد أن فرغ من الحديث الذى يملأ أحد عشر صفحة من تسع عشرة فما أطول نفـسه فى ساعة الموت ! وما أخلق هذا الأدب الميت بأن يـروى عن المحتـضرين ؟ وما أحق أهل الفـتى أن يطالبوا المنفلوطى دمه ؟

إبراهيم عبد القادر المازنى

شوقى فى الميزان

٢

عرضنا (شوقى) فى الميزان لأول مرة فارتج بـه ارتجاجا عنيفا وايقظه من غفله كان فيها سادرا وما هو الا أن حط به ثم شال حتى تمنى أن يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ويقول لخلطائه وسماسرته: «هبونى ليست بالمشاعر اليس لى فخر آخر أدل به ؟؟» .

نقول أجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول .

أما القراءة فقد بلغ الكتاب بينهم من الأثر ما كنا نقدره لأربعة اجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره فى أوانه - أسرعوا إلى اقتنائه حتى نفدت نسخة فى أسبوع أو أقل ونادرا ما كانت تقصر النسخة منه على قارئ واحد وتوالى الطلب له فى المدينة والأقاليم فلم نر بدا من التعويل على اعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها إلى الأدب . فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضى ذوى العقول المتزنة والفطر المستقيمة والاطلاع المجدى وموافقتهم عليه مرضية ورأيهم فيه جميل. ومنهم أذكياء الشبان الدارسون أو السالكون على

الجادة وكثير بينهم المشايعون بل المتهللون . وطائفة أخرى حظها من السماع أكثر من حظها من الاطلاع وجدناها إلى الموافقة المشفوعة بالدهش أميل منها إلى المنافرة والعنت وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطأ ويتهم ناقدته بالانحراف فهو يتلمس المعاذير ويدرب لسانه على التغيير ، وفى هؤلاء أمل لا يضيع ولا سيما بعد هداة الدهشة وتطامن المفاجأة لأن نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة أن اثلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة الحصباء ما يشق تسويته أوْ يعسر عند اليأس منذ نبذه . وأما التذمر فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره ونعنى فريقى القراء - وبالحرى المتحدثين - الين لم نوجه إليهم خطابا . وهما فريق المعجبين على الاشاعة الذين يطربون لما يطرب له الناس فرارا من تهمة الجهل والغرارة ويغرمون بالشعر كما يغرم بعضهم بجمع العاديات والمخطوطات أو بتربية الديكة ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللعبة التى فتن بها . ومن أظرف ما يروى عن أحدهم أنه سمع جملة فى نقد رثاء شوقى لعثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة التى أقام لها الأزهار والرياحين وسؤال عما كان من القطن بأصنافه فى تلك المناحة قطن - صان الله لشوقى اعجابه -- أننا انما انكرنا سكوته عن القطن وأردنا منه أن يذكره فقال متعجبا: وهل كان القطن (طالعا) وقتئذ فيذكره فى القصيدة ؟؟

والفريق الآخر من الساخطين هم أولئك الذين عرفوا بأنهم شركاء شوقى فى (العادات الخصوصية والمنادمات الليلية) فما رأينا أحر من سخطهم ولا أكثر تصنعا لأسبابه وتمحلا لعلله ، وهذه آخر اشارة نلمح إليهم بها .

*

ولا نحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد ولا نستبعد رجوعه إلى الحق متى وضح له وجهه . أول الانتقادين وأشبههما بالحق أننا اخترنا أوهن قصائد شوقى وأكثرها مغامز . وليس هذا صحيحا فإننا انما رأعينا الحداثة فيما اخترناه من قصائده وهى لا تقل فى اعتقادنا واعتقاده عن أجود شعره صياغة ومعنى . ولكن الحقيقة - كما قلنا فى الجزء الأول - هى أن قراء اليوم غيرهم بالأمس فليس يرضيهم ما كان فوق الرضى قبل عشرين سنة . ونحن نذكر أصحاب هذا القول بأننا انما كنا نصوب الانتقاد إلى شاعرية شوقى وذوقه وروح قصائده ومنهج أدبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه العجلة والتأنى ، وإذا كان الطعن فى الشاعرية والعاهة فى الذوق والاعوجاج فى المنهج فاختلاف القصائد كيفما كان الموضوع والأسلوب لا يقدم ولا يؤخر فى الحكم على الشاعر . ولعلهم بعد الاطلاع على هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث فى شعر شوقى سواسية .

أما ثانى الاعتقادين فهو أننا أغلظنا العصا لشوقى وشددنا عليه النكير . ولهؤلاء نقول أننا لا نهدم خطأ مؤسسا على البرهان فننقضه بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة وما أحوج البرهان فى هذه إلى الشدة وما أقل ما يغنى فيه اللين والهوادة . .

ومما استصعبوه أننا قرنا معانيه بمعانى الشحاذين . فياعجبا !! كأننا نحن نهينه إذا قابلنا أدعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف عنها وهو لا يهين نفسه ويهين ضمير الأمة حين يجمع المحافل المشهودة لتكريم الشحاذة فى أشنع ضروبها !! وأى حق على الناس لمن لا يعرف لنفسه ولا للناس حقا ؟؟ فنحن لا نرى للرجل فى أنفسنا قدرا يتجافى به عن أخشن عبارات الزجر والتقريع وهذا ما أعلناه فى تواطئة الجزء الأول ولا نريد العدول عنه فى هذا الجزء ولا فى الأجزاء التالية فمن كان يفقه ما نقول ولم يغضب لكرامة الفكر تداس هوانا والضمير الأمة يلطم على وجهه عيانا فليغضب علينا ما شاء فأنه يعرف كيف يغضب .

وكأننا بزمرة شوقى يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التى يغضب لها الناس فى آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا نؤكد لهم أنها حقيقة تحس وتلمس وأن كانت لا تؤكل ، وأنها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت أبان ظهور الجزء الأول عسى أن يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الأديب الجديد بشرف الأدب ، وما

ترخص لــه المحاكم فى التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه .

كان ولا يزال فى حاضر الزمان ، لا فى سالف العصر والأوان وفى الجزر البريطانيــة لا فى جزائر واق الواق ومعاهد الســحرة والجان ، انسى يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص – لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثيــر قصيدة عنوانها «إذا» يحض بها الهمم ويذكى فى النفوس الضرم . شاءت شركة جناتوزان أن تقتبس منها أبياتا لترويج غذاء مشهور من أغذيتــها التى تجهزها لمداواة الأعصاب فاقتبستهــا وكتبتها على لفائف دوائهــا . فماذا كان من أمر ذلك الرجل المدعــو رديارد كبلنج الذى قلنا أنه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعمــوا أنه قاضاها إلى أحدى مــحاكم لندن ، وزعمــوا أن وكيله – ويدعى المستــر هيور – وقف فطلب إلى القــضاء منع الشــركة من امتــهان الأبيات بهذا الاستــعمال ، وقال فيما قــال . «أنه لمن أصعب الأشياء أن يتخيل الانسان أمرا أشد ايذاء لنفس المؤلف من ابتذال كلامه بادماجه على هذه الصــورة فى صيــاح البــاعة على سلعــهم . أنهــا لاهانة لا تقل عن السباب المقذع لكل من لامست نفسه أقل مسحة من الكرامة الأدبية» .

قالوا : فلما نطق القاضى بحكمه عــذر الشاعر وقال : «لا عجب أن ينفر المستــر كبلنج من استخدام كــلامه على هذه الصورة – وعندى أن هذا الاقتبــاس لا يدخل فى حق الاستشهــاد الذى يجيزه قانون حــقوق الطبع

الصادر سنة ١٩١١» وحكم بتغريم الشركة أربعين شلنا تعويضا للاهانة التى ألحقتها بالشاعر[1] .

فهذه أسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكهوا بروايتها عن تلك العنقاء التى يسمونها الكرامة الأدبية ، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الأساطير فى غير قصور ألف ليلة حريون أن لا يقفوا بها عند حد التفكهة .

لمثل ذلك الابتذال يغضب أديب الغربيين ويقول محاميهم أنه أشد ما يتخيل ايذاء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم أنف أن يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعا وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، أن صح أن التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لأن أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة الأدبية واريحية الفنون أقل معنى ولا يفهمون من جمال الشعر إلا أنه «أسرى مروءة الدنى وأدنى مروءة السرى» كما كان يقال فى عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لو لا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة إلا أعجوبة مبهمة ولغزا مغلقا ، لأن

(١) جريدة الديلى كرنيكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

هذا الذى أنف كبلنج أن يصنع بشعره على غيره على علم منه قد صنعه شوقى بشعره مختارا وتعمد أن يكون اعلانا لسلعة معروضة ؟ ألم ينظم أبياتا يروج بها «ريشة صادق» ونشرها فى الصحف ؟ بل فقد قال أدامه الله للدكاكين والمآتم والأفراح والسهرات :

لله ريشة صادق من ريشة ... تزرى طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة فى المشارق كلها ... حسنا وفكتها من التقييد
تهدى لحسن الخط كل مقصر ... وتمد فى الاحسان كل مجيد
أغلى لدى الكتاب ان ظفروا بها ... من ريشة الالماس عند الغيد
والذفوف الطرس أن خطرت به ... من ريشة الليثى فوق العود
وتكاد تحيى مؤنسا بصريرها ... وتقول أيام ابن مقلة عودى
لو لم يكن فى الأمر إلا أنها ... مصرية لاستوجبت تمجيدى

وفى هذه الأبيات أوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة - شعر لا يتأبه صاحبه أن ينزل به منزلة الاعلانات التجارية ، وعبقرية دراجة ابانت أن اخيلته وابتكاراته هى ومبالغات الباعة وتزويقات الدلالين وتحلية البضاعة على حد سواء . وأن من يروج ريشة كتابة بأنها « أغلى من ريشة الالماس» لقريب نسب ممن ينادى فى قوارع الطرقات «يا جواهر يا عنب» والذى يدلل على ريشة عربية بأنها «حسنت الكتابة فى المشارق كلها» انما يرشف من البحر الذى تغرف منه «الفرص الحقيقية وأحسن

بضاعة فى العالم كله» و «ولم لم يكن فى الأمر إلا أنهـا مصرية» شبيهة بكل ما ينسب إلى مصر والمصـريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى أن البـاعة لا يغلطون غلطة شوقى فـيقولون وهم يعرضـون الريشة ويمدحونها بالجد والسلاسة أن لها صريرا يكاد يحيى الأموات !!

وبعـد فان المرء لـيزدرى العـقل الإنسـانى نفـسه أن قـيل أن هؤلاء الصعـاليك الفكريين الذين تقـوم عليهم الامارة الشـوقيـة من ذوى مزاياه وحملة أمانتـه فى الأرض . فالأدباء فى الأمم هم عنوان حياتهـا الروحية والفكريـة ومعـيارا لما تحســه من مفاخـر الحـياة وقوى الطبـيعة ومـعانى الوجود ، وهم الرافعـون فيه لقبس ذلك النور السماوى الذى يـفيضه الله من الآيات والفنون حـمالا ونبـلا . ويوحيـه كمـالا وفضـلا ، وهـم إذا ذكرت الفصاحة فى الأمم صـفحتها الواضحة وطبقتهـا الممتازة الراجحة ، فقل لى رعاك الله أى هذه الطغمـة أميرا كان أو مأمورا تفخـر الأمة الحية بأنه صورة ما فى نفوسها من زينة وجمال ومظهر ، ما فى رؤسها من فكر وخيال ، وترجمان ما يجول بوجـداناتها وتعمر به صدورها من قسط فى الوجود ، وتراث مقسم بين أبناء آدم . وان المرء ليزهى بآدميته حين يلقى بنفسه فى غمـار الآداب الغربية، وتجيش أعماق ضميـره بتدافع تياراتها ، وتعارض مهابها ومتجهـاتها وتجاوب اصدائها وأصواتها - أبواب للكتابة منوعة ، ومـهايع متـسعة ، وفنون مبـتدعة . ونحل ومـذاهب، ومدارس ومشارب . والحيـاة بين هذه الأفكار المشرقة معروضـة للنظر فى كل شية

من شياتها ، محسوسة فى كل خطرة من خطراتها ، متكررة متضاعفة ، شاكة موقنة ، جادة ساخرة ، ناقمة راضية . شهوانية متنطسة . فياضة غير بكية ، موصولة ينابيعها مروية ، والنفس تحس من احدى نواحى ذلك العالم الرحيب ما لا تحسه من سواها . فكأنها نفوس متفرقة لأنفس واحدة جاثمة .

كذلك عالمهم . ثم تلتفت إلى الأدب الذى يدعيه أولئك الأميون العارفون بالكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة . العامة المتطفلون على موائد الخاصة فترى عجبا . ترى هذا عاكفا على رقمية ولعلعه وذاك مدبرا إلى ربربه وسربه ، ومادحا وهاجيا ومحسوبا على آل فلان ومتمسحا بآل عمران . نفوس ضاوية وعقول خاوية واخيلة فى التراب ثاوية . أو كأنما هى الأثقال إلى القرار هاوية . فصدق احدى اثنتين : أما أن أدبا تسمعه من هؤلاء أشرف ما تنطق به النفس ساعة تسمو إلى أسمى معارج الإنسانية . أو أنهم ليسوا من ذاك وانما هم محترفو حرفة ليس من آلاتها نباغة الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور .

وأن من الجناية على مصر والشين لها أن يسمى هؤلاء النفر بعد اليوم أدباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة فنية يعنو ذووها لكل وبش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من أغراضه أو يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات أرزاقهم بعرض ثعابينهم وخيولهم ؟؟ ووارحمتا «للكلتور المصرى» يساق دعائمه لتمثيل

الروايات وانشاد الأشعار بأيسر مما يساق المولوية لتشييع الجنائز وتلاوة الأذكار !!

ولقد كان مما قيل فى المدينة الحديثة أن أقلام أدبائها أحدى الحواجز التى تصونها أن ترتد إلى العصور المظلمة وأنها عصمة لها من أن تستبد بعقولها عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو طائفة ، وأنها سلاح من أسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ويحسب حسابه كل طاغية - فأى عصمة لمصر فى أقلام هؤلاء المخططين والنظامين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة ؟؟ إلا أن العصا فى يد الاكار لانفع لمدينة مصر وأصون لسمعتها من كل قلم تشرعه تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون أنفسهم من الكرامة فلا احجاف بهم ، ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطأة القلم المنصب عليهم . ولقد وجب بل آن أن يفهم الأدب على غير ما يفهمونه وأن ينحوا عن مكان لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

*

وكأنما شاء القدر أن يبدد حبائل شوقى وطلاسمه كلها فى بضعة أسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم فى مصر عليه القوم يثنون عليه فيغترون بتشيعهم له ويروعهم أعجابهم به ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنا وخطرا ، حتى جاءت لجنة الأغانى فأماطت السترعما وراء ذلك

وهتكت للناس حقيقة أعجاب هؤلاء العلية إذا أعجبوا وقيمة استحسانهم إذا استحسنوا . وأنها أن هى إلا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة المداراة .

شمرت اللجنة عن ساعديها وأغمضت أمام المتفرجين عينيها كما يصنع المشعوذ الهندى إذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها فى الجراب فأخرجت نشيد شوقى وهى تقسم أنها لا تعرفه وجعلت تلوح به للملاكى يشاركها فى الابتهاج به فيللمهارة!! ولكنها لسوء حظ شوقى كانت تنقصها خفة اليد !!

ولا حاجة بنا إلى الاستنتاج ولا إلى العود لما حدث فى الجلسة مما أظهر اطلاع أكثر الأعضاء على النشيد قبل التئامها اكتفاء بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الأول .

فالقراء يذكرون أن اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين - وهم أعضاؤها الاخصائيون - اختارت نشيد شوقى وأعلنت أسباب اختيارها له فى منشورها وهى أنها «انتهت فى مناقشتها إلى أنه اكفاها وأوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التى ينبغى أن تتسق لنشيد قومى » وكذلك علمنا أن حكمها لم يصدر اعتباطا ، ولا كان عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء أن الاستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك فى الصحف ينقد النشيد ويقرر أنه لا يصلح للتلحين بانغام الأناشيد القومية . ثم أنهم

يذكرون أن فـريقا من أعـضاء نادى الموسـيقى من الذين كـانوا فى لجنة الأغـانى اذاعوا بعـقب ذلك فى الصحـف أن الأستـاذ أنما يتكلم برأيه ، ومعنى هذا أنهم كانوا لا يزالون إلى ذلك الحين مصرين على حكم اللجنة مجدين فى أبعاد كل مظنة فى صلاحية «النشيد الوطنى المختار» للتلحين .

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبنى على المناقشة وهذا الاصرار الصادر عن روية ؟

ثم يصفق جـمهور الناس مع اللـجنة وقد بدأت هى أمامـهم وأقبلوا يـسألونها وهى محتدمة تصفـيقا : ما هذا الذى تصفقين له ؟؟ نعم لم يعد يكفى فى هذه الأمـور أن يرى الناس ذا لقب يصـفق فيـصفـقون وراءه . وكثر اللغط بتحـيزها واجترأ الموسيقيـون على الافضاء بآرائهم فى تلحين النشيد فـسقط سقوطا تاما وكان صاحبه أول المنهزمين . فقد أخذ يزعم أنه أنما نظمه ليغنيه جماعة عكاشة فى مسرحهم . . كأنما النشيد مشى بقدمين إلى ديوان لجنة الأغـانى !! وخـشيت اللجنة أن يكـون حكم الأمة عليـه حكمـا قاضيـا على معـرفتـها وانصـافهـا واخلاصـها فـبادر أعضـاؤها الاخصائيـون يبلغون الصحف أن النشيد يصلح للـتلحين ولكن لا كنشيد قومى!! وقيل بلسان رئيسها أنهم لم يشترطوا ذلك فى تلحينه . اذن فماذا اشتـرطم ؟؟ اتراكم كنتـم تقدمون للأمـة «طقطوقة» تغنيهـا على المعازف والآلات؟ وأين ذهبت تلك المزايا التى اتسقت «للنشيد الوطنى المختار» ؟؟

كذلك تهافت حكم لجنة الأغانى بيدها وانكشف طلسم كان من أبهر طلاسم الشهرة الجوفاء لعيـون الدهماء ، ونعنى به طلسم الأسماء الخلابة

ووهم الألقاب الجذابة . وعندنا أن لجنة هذا مبلغ غيرتهـا على مهمتها لن يرجى منها صلاح للأغانى ولا لسواهـا ولكنها إذا كانت تخرج من العدم لتؤب إليه بعـد أن تكون قد أبطلت وهم العامة فى أمـثالها فتلك مـهمة طيبة تستحق من أجلها نعمة هذا الوجود القصير .

على أنها مهمة نفسها على هذه اللجنة فـقد شوركت فيها مشاركة لم تدع لها فضلا كبيرا فلو لم تقيضها الحوادث لاظهار قيمة التحبيذ والاطراء من ذوى الألقاب والأسماء لتكفل بذلك محفل آخر أقيم فى شهر ديسمبر الماضى وهذه حكايته نرويها ولا نعقب عليها .

قال المقطم فى عدد يوم الثلاثاء الحـادى والعشرين من ذلك الشهر : قد كان يوم الجمعة الماضى ميعاد القاء القصيدة الحسينية التى نظمها حضرة الشاعـر الفاضل السيـد محمـد عبد الله القـصرى فى الحفلة التى أقـيمت تكريما له برئاسة حضـرة صاحب السمو الأمير الجليل عـمر طوسون بدار الجمعيـة الإسلامية بقصر النزهة بشبـرا فما وافت الساعة التاسعـة صباحا حتى أقبل المدعون من علماء وكـبراء وأدباء وأعيان فازدحم بهم المكان ثم أقبل نائب الأمير مـحمد بك جلبى باشمعاون الدائرة فـصدحت الموسيقى بالسلام وكـذلك فرق الكشافـة للكشاف الأعظم ثم بدأت الحـفلة بالذكر الحكيم فنشيد شوقى بك فنشيد الكشافـة فمقطعات شعرية من بعض طلبة مدارس الجمعية ثم وقف نائب الأمير واعـتذر عن سموه بكلمات رقيقة ثم نهض الشاعـر ناظم القصيدة وألقـاها بين الاعجاب والتصفـيق الشديد .

وبعد انتهائه قدم له نائب الأمير ساعة ذهبية أثرية ثمينة وتبرع حضرة العربى الكريم عبد المجيد بك محمد السعدى بمائة جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية ثم وقف حضرة الشاعر العربى عمر بك السعدى وألقى قصيدة عامرة أثنى فيها على سمو الأمير لتعضيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من أصبعه خاتما من الماس ووضعه فى أصبع الأستاذ القصرى وقدم له سيادة السيد محمد أبو بكر مرغنى شيخ السادة المرغنية بمصر خاتما من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندى عليش لوحة كتب عليها اسمه بخطة الجميل وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية أنشده بعض التلاميذ والتلميذات ثم بالقرآن وأقبل المدعوون وهم يزيدون على ثلاثة آلاف لتهنئة الشاعر .

انتهى ما نقلناه من المقطم . فليتأمله القارئ وليتصور اسم شوقى مجردا من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلى بها وليستدل منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر . .

وثم مثل اخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنتنا مثلها فى انصافها وفى الاخلاص للفن الذى تخدمه وتنشيط المواهب الفتية التى تنهض إليه لولا أنها آثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة المثلى . ففى فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات (أكاديمية كونكورد) يحكم فى كل سنة

بجائزة قدرها أثنى عشر ألف فرنك للسابق من الأدباء فى باب من أبواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة المنصرمة فتى اسمه ارنست بيروشون لرواية قصصية الفها . أفيدرى القارئ من هذا أرنست بيروشون ؟

نقلت الأنباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم الفرنسى يسأل عن شأنه فإذا المسئول والسائل فى العلم به سواء . راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فألفوها خلوا من كل اشارة إليه أو إلى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعا فيه اسمه بعلامة استفهام . ومضت الأيام ونسينا خبره حتى جاء البريد فلفت نظرى عنوان فى احدى صفحة هذه ترجمته «خير روايات العام . يؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الأكاديمية الفرنسية»[1] فتصفحت الجملة فإذا به صاحبنا بيروشون وإذا هو مجهول هناك كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونيكل فى باريس «وكان بيروشون ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، مجهولا إلى يوم أمس جهلا تاما وأن كان قد طبع فى الأقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص . . ولم يكن أحد من أعضاء المجمع يعرفه إلا أن أحدهم قرأ قصته المقدمة اتفاقا فأعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الأدباء النابهين بين طلاب الجائزة يوم أمس ولكن فاز أستاذ القرية المتواضع دونهم بمشعل النصر» .

فياقوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب . تلك لجانهم تعدل فى أحكامها هذا العدل وتحيى كل ملكة صالحة للحياة وهم

(۱) جريدة الديلى كرونيكل عدد ۱۳ ديسمبر ۱۹۲۰

لا يأتمون بها مغمضين ولا يسلمون لـها خاضعين ، فكيف لو أنها كانت كلجنتنا هذه المباركة: لجنة لا تحسن غير المجاملة ولا تحسن أن تجامل الا بأن ترضى فردا لتقضى على أمة كاملة بالعقم والافقار! ان فى ذلك لموعظة .

*

وخاصة القول أننا عرفنا رأى القراء فى عـملنا فقسمناهم إلى فريقين فأمـا الذين يعجـبون بشـوقى لغيـر سبب معـقول يفئ إلى شـعره فـقد أسخطناهم ولا نسأل الله أن يخفف سـخطهم . وأما الذين يرجعون إلى الأسباب فقد وثقنا منهم بالمؤازرة وكان أقلهم موافقة من أرجأ الحكم لنفسه حتى يرى . وأننا لنعلم أنه يرى ما يقنعه .

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : أن رأى الأولين يمثله كتاب ورد إلينا غفـلا من التوقيع يقول فـيه كاتبـه ما ترجمتـه : «خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة إليه» .

وجوابنا لهذا وأمثاله : «صدقتم ولا هو بحاجة إليكم» .

ويمثل رأى الآخرين بيت لقينا به أديب مشهور فقال : أيه يا فلان ، إليك بيتا يسير مسير الأمثال :

شـوقى تـولاه عـبـاس فـاظهـره   واليوم يخمله فى الناس عباس

وجوابنا له : بل أنه عصر يخمل عصرا ولاغية وهم تخفتها صيحة حق . وأنا لعلى الحق صامدون .

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سماسرة شوقى : ما ترى فى رثائه لمصطفى كامل ؟ أتنتقده ؟ قلت وماذا عساى أن أنتقد أن لم أنتقد الهراء والزيف والشتات؟ ؟ قال أن القصيدة آيته . قلت لقد هديتنى هداك الله فما كنت أظنها آية لأحد من العالمين وما حسبتها إلا زلة أسقطته فيها «مغالبة الشجون لخاطره» أو داهية خانة فيها امكانة الذى ما فتئ يخونه كما قال منها :

ماذا دهانى يوم بنت فعقنى   فيك القريض وخاننى امكانى

وما دهاه إلا العجز والفهاهة والحرج . دهته اولا فأجبل وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها فى أربعين يوما ثم زاد كثيرا من أبياتها وغير وبدل فيها . ثم دهته ثانياً فجرى فيها على عادته من التلفيق والعقم والزغل المموه . فأما وقد علمت أنها الآية التى بها تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده ، والمعجزة التى يستنصر بها دعاته فبأيته فلندحض رسالته وفى معقله الحصين فلنكشف وهنه ونفضح مطاعنه ، وأنه لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل وأى معقل ولكنها آية السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل أخوى من ذلك واضعف ، وأضأل فى الضئولة وأسخف ، أراحه الله من شعره بما أراح من أقلام نقاده فانه علم الله لم

يزعج لهم بديهة وأن كـان يزعج بديهته فى صباح ومسـاء ، ولا كد لهم خـاطرا وأن كان خـاطره منه فى وصب وشقـاء . ولقد فـات أصحـابنا سمـاسرة شوقى أن خـلافنا معهم لـم يكن خلافا على درجـات الاجادة وخطوات السبق فتـتقارب كلما أجاد شاعـرهم فى رأيهم أو خيب آمالهم واخلف ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشـعر وجوهره ثم على أداته وطبقته فـربما كانت أرفع القصائد عندهم درجة أخسـها عندنا معدنا وربما طربوا كل الطرب من حـيث نعزف كل العزوف . كـالمسحـور كلما ازداد استحـسانا لما هو فيه كان أبعـد عن حالة الصحو والصواب وكـالاعجمى كلما أمعـن فى فصاحته وبيـانه استغلق على مسـامع الاعراب . وهذا هو الواقع فى ما أخذناه ونأخذه على شعر شوقى وهو بخاصة شأننا فى الحكم على قصيدته هذه التى رأينا بعض المفتونين يجلها عن الانتقاد ويعجب من أن تعاب ، وهى لو يفقه من القصائد التى يصاب منها المذهب العتيق فى مقـاتله والشواهد التى يبحث عنهـا لابراز مآخذه . وسنسـتعرضـها على عيـوب ذلك المذهب فنبين مواقعهـا منها حتى يكون لمن قـصر النظر على قشورها رأى غير رأيه الأول فيها .

فالعيوب المعنوية التى يكثر وقوع شوقى وأضـرابه فيها عديدة مختلفة الشـيات والمداخل ، ولكن أشـهـرها وأقربهـا إلى الظهـور وأجمـعهـا لأغلاطهم عيوب أربعة وهى بالإيجاز : التفكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر - وهذه العيوب هى التى صيرتهم أبعد عن الشعر

الحقيقى الرفيع المترجم عن النفس الإنسانية فى أصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الزنجى عن المدنية من صور الأبسطة والسجاجيد كما يقول ماكولى عن نفائس الصور الفنية : ولكل من العيوب الآنفة أثر ظاهر فى هذه القصيدة قد لا تجده فى غيرها من القصائد الا مزويا أو دقيقا عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر هذه القصيدة بهذا المسبار أن من نقائص الشعر مالا يمنع أن يلمح له رواء معجب يستهوى البسطاء بل ربما زادته جمالا فى الظاهر كالحلى المزيفة فانها فى الغالب أجمل من كريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة غالية .

(١) التفكك

فأما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة إذ كانت القصائد ذات الأوزان والقوافى المتشابهة أكبر ومن أن تحصى فإذا اعتبرنا التشابه فى الأعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن أن ننقل البيت من قصيدة إلى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو مالا يجوز . ولتوفيه البيان نقول أن القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته

ولا يغنى عنه غيره فى موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة . أو هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدته وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون الهمج المتأبدين فانك تراهم يلائمون بين الوان الخرز واقداره فى تنسيق عقودهم وحليهم ولا ينظمونه جزافا الا حيث تنزل بهم عماية الوحشية إلى حضيضها الأدنى ، وليس دون ذلك غاية فى الجهالة ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية فى الشعر فلم تجدها فاعلم أنه ألفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد أو شعور كامل الحياة بل هو كامشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض أو كأجزاء الخلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف وأجهزة ، وكلما استفل الشئ فى مرتبة الخلق صعب التمييز بين أجزائه . فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها فى اللون والتركيب صالحة لأن تحل فى أى مكان من البنية التى هى فيها . فإذا أرتقيت إلى النبات ألفيت للورق شكلا خلاف شكل الجذوع وللالياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين أتمه فى أشرف المخلوقات وأحسنها تركيبا وتقويما . وهى سنة تتمشى فى أجناس الناس كما تتمشى فى أنواع المخلوقات ومصداق ذلك ما نشاهده من تقارب الأقوام المتأخرة فى السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جيمعا على الناظر وهى حقيقة فطنت إليها قبائل البدو بالبداهة ولمسها البحترى فى هجوه لمعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم :

وبنو الهجيم قبيلة منحوسة حص الحى متشابهو الألوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة تراها تتفاوت أقدارا وملامح وبدوات وأطوارا حتى ليوشك أن يكون من المستحيل اتفاق اثنين فى هندام الجسم وهيئته وفى مواهب الذهن ونزعته. ونقترب مما نحن بصدده فنقول أنك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال فى الأدب ألفيت تشابها فى الأسلوب والموضوع والمشرب وتماثلا فى روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم القصائد بعناوين وأسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من أن الأسماء تنبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات ، ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر أعضائها فيقولون أفخر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كأن الأبيات فى القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها أنفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها وهذا أدل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكرة وجفاف السليقة فكأنما القريحة التى تنظم هذا النظم وبصات نور متقطعة لا كوكب صامد متصل الأشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة ، أو كأنما هى ميدان قتال فيه ألف عين وألف ذراع وألف جمجمة ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة .

وإذ كـان ذلك كذلك فـلا عجب أن ترى القـصيـدة من هذا الطراز كالرمل المهيل لا يغـير منه أن تجعل عاليه سافله أو وسطه فـى قمته ، لا كالبناء المقسم الذى ينبئك النظر إليه عن هندسته وسكانه ومزاياه .

وهذه كومة الرمل التى يسميها شـوقى قصيدة فى رثاء مصطفى كامل نسأل من يشاء أن يضـعها على أى وضع فهل يراها تعـود إلا كومة رمل كما كانت ؟ وهل فيهـا من البناء الا أحقاف خلت من هندسة تختل ومن مزايا تنتـسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية ينقطـع أطرادها أو يختلف مجراها . وتقريرا لذلك نأتى هنا على القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيدها على ترتيب آخر يـبتعد جـد الابتعاد عـن الترتيب الأول ليقـرأها القارئ المرتاب ويلمس الفـرق بين ما يصح أن يسـمى قصـيدة من الشـعر وبين أبيات مشـتتة لا روح لها ولا سـياق ولا شعور ينتظمهـا ويؤلف بينها . ونحن نأسف على فضاء نضيـعه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضـياعها إلا أنها كما نرجو لا تضيع عبثا - قال شوقى أصلحه الله :

١- المشـــرقـــان عليك ينتـــحـــبـــان
قـــاصـــيـــهـــمـــا فـى مـــأتم والـدانى

٢- يا خـــادم الاســلام أجـــر مـــجـــاهد
فـى الله مـن خـلـد ومـن رضـــــــــوان

٣- لما نعـيت إلى الحـجـاز مـشى الأسى
فـى الزائـريـن وروع الحـــــــرمـــــان

٤- السكة الكبـرى حيـال رباهمـا

منكوسـة الاعـلام والقـضـبـان

٥- لم تألهـا عند الشـدائد خـدمـة

فـى الله والمخـتـار والسلطان

٦- يا ليت مكة والمدينة والمدينة فـازتا

فـى المحلفين بصـوتك الرنان

٧- ليـرى الأواخر يوم ذاك ويسـمـعـوا

مـا غـاب عـن قس وعن سـحبـان

٨- جـار التـراب وأنت أكـرم راحل

مـاذا لقـيت من الوجـود الفـانى

٩- أبكى صـبـاك ولا أعـاتب من جنى

هذا عليـه كـرامـة للجـانى

١٠- يتسـاءلون أبا السلال قـضيت أم

بالقلب أم هل مت بالسـرطان

١١- الله يشـهـد أن موتك بالحـجـا

والجـد والأقـدام والعـرفـان

١٢- أن كـان للاخـلاق ركن قـائم

فى هذه الدنيـا فـأنت البـانى

١٣- بالله فتش عن فؤادك فى الثرى

هل فيه آمال لنا وأمانى

١٤- وجدانك الحى المقيم على المدى

ولرب حى ميت الوجدان

١٥- الناس جار فى الحياة لغاية

ومضلل يجرى بغير عنان

١٦- والخلد فى الدنيا وليس بهين

عليا المناصب لم تتح لجبان

١٧- فلو أن رسل الله قد جبنوا لما

ماتوا على دين ولا ايمان

١٨- المجد والشرف الرفيع صحيفة

جعلت لها الأخلاق كالعنوان

١٩- وأحب من طول الحياة بذلة

قصر يريك تقاصر الأقران

٢٠- دقات قلب المرء قائلة له

إن الحياة دقائق وثوان

٢١- فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها

فالذكر للإنسان عمر ثان

٢٢- للمرء فى الدنيا وجم شئونها

ما شاء من ربح ومن خسران

٢٣- فهى الفضاء لراغب متطلع

وهى المضيق لمؤثر السلوان

٢٤- الناس غاد فى الشقاء ورائح

يشقى له الرحماء وهو الهانى

٢٥- ومنعم لم يلق إلا لذة

فى طيها شجن من الأشجان

٢٦- فاصبر على نعم الحياة وبؤسها

نعمى الحياة وبؤسها سيان

٢٧- يا طاهر الغدوات والروحات

والخطرات والأسرار والاعلان

٢٨- هل قام قبلك فى المدائن فاتحا

غاز بغير مهند وسنان

٢٩- يدعو إلى العلم الشريف وعنده

أن العلوم دعائم العمران

٣٠- لفوك فى علم البلاد منكسا

جزع الهلال على فتى الفتيان

٣١- ما أحـمـر من خـجل ولا مـن ريبـة
لـكنـمـا يبـكـى بـدمع قـان

٣٢- يزجـون نعشك فـى السناء وفى السنى
فكـأنما فـى نعـشـك القـمـران

٣٣- وكـأنه نـعش الحـسين بكـربلا
يـخـتـال بـين بكـى وبـين حنـان

٣٤- فـى ذمـة الله الـكـريم وبـره
مـا ضـم من عـرف ومن احـسـان

٣٥- ومـشى جـلال الموت وهـو حـقـيـقـة
وجـلالك المـصـدوق يلـتـقـيـان

٣٦- شـقت لمنظرك الجـيـوب عـقـائل
وبكـتك بـالدمـع الهـتـون غـوان

٣٧- والخلق حـولك خاشـعون كـعهـدهم
إذ ينـصـتـون لخطـبـة وبـيـان

٣٨- يتـسـاءلون بـأى قلـب ترتـقى
بـعـد المنـابـر أم بـأى لـسـان

٣٩- فـلو أن أوطـانا تـصـور هـيكـلا
دفـنـوك بـين جـوانـح الأوطـان

٤٠- أو كـان يحـمل فـى الجـوانح مـيت

حـملوك فى الأسـمـاع والأجـفـان

٤١- أو صيغ من غـرر الفـضـائل والعلى

كـفن لبـست أحـاسن الأكـفـان

٤٢- أو كـان لـلذكـر الكريم بقـيـة

لـم تأت بعـد رثيت فـى القـرآن

٤٣- ولقـد نظرتك والردى بك مـحـدق

والداء مـلء مـعـالـم الجـثـمـان

٤٤- يبـغى ويطغى والطبـيـب مـضلل

قنط وسـاعـات الرحـيل دوان

٤٥- ونواظـر العـواد عـنك أمـالـهـا

دمع تـعـالـج كـتـمـه وتعـانى

٤٦- تملى وتكتب والمشـاغـل جـمـة

ويداك فـى القـرطاس ترجـفـان

٤٧- فـهـشـشت لى حـتى كـأنك عـائدى

وأنا الـذى هد السـقـام كـيـانى

٤٨- ورأيت كـيف تموت آسـاد الشـرى

وعـرفت كـيف مـصـارع الشـجـعـان

٤٩- ووجدت فى ذاك الخيال عزائمها
ما للمنون بدكهن يدان

٥٠- وجعلت تسألنى الرثاء فهاكه
من أدمعى وسرائرى وجنانى

٥١- لولا مغالبة الشجون لخاطرى
لنظمت فيك يتيمة الأزمان

٥٢- وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران

٥٣- قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
وتجل فوق النيرات مكانى

٥٤- ماذا دهانى يوم بنت فعقنى
فيك القريض وخاننى امكانى

٥٥- هون عليك فلا شمات بميت
أن المنية غاية الإنسان

٥٦- من للحسود بميتة بلغتها
عزت على كسرى انوشروان

٥٧- عوفيت من حرب الحياة وحربها
فهل استرحت أم استراح الشانى

٥٨- يا صب مصر ويا شهيد غرامها

هذا ثرى مصر فنم بأمان

٥٩- أخلع على مصر شبابك عاليا

والبس شباب الحور والولدان

٦٠- فلعل مصرا من شبابك ترتدى

مجدا تتيه به على البلدان

٦١- فلو أن بالهرمين من عزماته

بعض المضاء تحرك الهرمان

٦٢- علمت شبان المدائن والقرى

كيف الحياة تكون فى الشبان

٦٣- مصر الأسيفة ريفها وصعيدها

قبر أبر على عظامك حان

٦٤- أقسمت أنك فى التراب طهارة

ملك يهاب سؤاله الملكان

*

كذلك انتظمت لشوقى مرثاة فى مصطفى كامل وسماها قصيدة لأنها لم تأب أن تستقر فى قرطاس واحد ، ولقد كان أحرى بها أن تسمى

أربعة وستين بيتا منظومة فى كل شئ أو فى لا شئ . فاعتبرها أيها القارئ على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر أربعة وستين بيتا لم تزد ولم تنقص ولم تخسر حسنة كانت لها بل لعلها وعادت أحسن نسقا وأقرب نظما - قال شوقى أيضا :

١- المشرقان عليك ينتحبان
قاصيهما فى مأتم والدانى

١٤- وجدانك الحى المقيم على المدى
ولرب حى ميت الوجدان

٢١- فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثان

٦٤- أقسمت أنك فى التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

٢٧- يا طاهر الغدوات والروحات
والخطرات والأسرار والاعلان

٩- أبكى صباك ولا أعاتب من جنى
هذا عليه كرامة للجانى

١٩- وأحب من طول الحياة بذلة
قصر يريك تقاصر الأقران

٥٦- من للمحسود بميتة بلغتها

عزت على كسرى انوشروان

٣٦- شقت لمنظرك الجيوب عقائل

وبكتك بالدمع الهتون غوان

٥٥- هون عليك فلا شمات بميت

أن المنية غاية الإنسان

٢٠- دقات قلب المرء قائلة له

إن الحياة دقائق وثوان

١٣- بالله فتش عن فؤادك فى الثرى

هل فيه آمال لنا وأمانى

٦٠- فلعل مصرا من شبابك ترتدى

مجدا تتيه به على البلدان

٤٣- ولقد نظرتك والردى بك محدق

والداء ملء معالم الجثمان

٤٤- يبغى ويطغى والطبيب مضلل

قنط وساعات الرحيل دوان

٤٩- ووجدت فى ذاك الخيال عزائما

ما للمنون بدكهن يدان

٦١- فلو أن بالهرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهرمان

٤٦- تملى وتكتب والمشاغل جمة
ويداك في القرطاس ترتجفان

٤٥- ونواظر العواد عنك أمالها
دمع تعالج كتمه وتعاني

٤٧- فهششت لي حتى كأنك عائدي
وأنا الذي هد السقام كياني

٥٠- وجعلت تسألني الرثاء فهاكه
من أدمعي وسرائري وجناني

٤٨- ورأيت كيف يموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان

٥٤- ماذا دهاني يوم بنت فعقني
فيك القريض وخانني امكاني

٥٢- وأنا الذي أرثي الشموس إذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران

٥٣- قد كنت تهتف في الورى بقصائدي
وتجل فوق النيرات مكاني

٥١- لولا مغالبة الشجون لخاطرى
لنظمت فيك يتيمة الأزمان

*

٥٨- يا صب مصر ويا شهيد غرامها
هذا ثرى مصر فنم بأمان
٦٣- مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
قبر أبر على عظامك حان
٣٤- فى ذمة الله الكريم وبره
ما ضم من عرف ومن احسان
٤١- لو صيغ من غرر الفضائل والعلى
كفن لبست أحاسن الأكفان
٤٠- لو كان يحمل فى الجوانح ميت
حملوك فى الأسماع والأجفان
٤٢- ولو أن أوطانا تصور هيكلا
دفنوك بين جوانح الأوطان
٤٢- أو كان للذكر الكريم بقية
لم تأت بعد رثيت فى القرآن

٢- يا خـادم الاسـلام أجـر مـجـاهد
فـى الله مـن خـلـد ومـن رضـوان

٦- يـا ليـت مـكـة والمدينـة فـازتـا
فـى المحـلـفـين بـصـوتـك الـرنـان

٧- لـيـرى الأواخـر يومـذاك ويسـمـعـوا
مـا غـاب عـن قس وعن سـحـبـان

٣- لما نعـيت إلى الحـجـاز مـشى الأسى
فـى الزائـريـن وروع الحـرمـان

٤- السـكة الكبـرى حـيـال رباهـمـا
منـكـوسـة الاعـلام والـقـضـبـان

*

٨- جـار الـتـراب وأنـت أكـرم راحل
مـاذا لـقـيـت من الوجـود الفـانى

٥٧- عـوفـيت من حـرب الحيـاة وحـربهـا
فـهل اسـتـرحت أم اسـتـراح الشـانى

١٠- يتسـاءلون أبا السـلال قـضـيت أم
بـالـقـلـب أم هـل مـت بـالسـرطـان

١١- الله يشهد أن موتك بالحجى

والجد والأقدام والعرفان

١٨- المجد والشرف الرفيع صحيفة

جعلت لها الأخلاق كالعنوان

١٢- أن كان للاخلاق ركن قائم

فى هذه الدنيا فأنت البانى

٢٨- هل قام قبلك فى المدائن فاتحا

غاز بغير مهند وسنان

٢٠- دقات قبل المرء قائلة له

إن الحياة دقائق وثوان

٢٢- علمت شبان المدائن والقرى

كيف الحياة تكون فى الشبان

١٦- والخلد فى الدنيا وليس بهين

عليا المناصب لم تنح لجبان

٢٣- فهى الفضاء لراغب متطلع

وهى المضيق لمؤثر السلوان

١٧- ولو أن رسل الله قد جبنوا

لما ماتوا على دين ولا ايمان

٣٠- لفوك فى علم البلاد منكسا

جزع الهلال على فتى الفتيان

٣١- ما أحمر من خجل ولا من ريبة

لكنما يبكى بدمع قان

٣٥- ومشى جلال الموت وهو حقيقة

وجلالك المصدوق يلتقيان

٣٢- يزجون نعشك فى السناء وفى السنى

فكأنما فى نعشك القمران

٣٣- وكأنه نعش الحسين بكربلا

يختال بين بكى وبين حنان

٣٧- والخلق حولك خاشعون كعهدهم

إذ ينصتون لخطبة وبيان

٣٨- يتساءلون بأى قلب ترتقى

بعد المنابر أم بأى لسان

٥٩- أخلع على مصر شبابك حاليا

والبس شباب الحور والولدان

٥- لم تألها عند الشدائد خدمة

فى الله والمختار والسلطان

١٥- الناس جار فى الحياة لغاية
ومضلل يجرى بغير عنان

٢٥- ومنعم لم يلق إلا لذة
فى طيها شجن من الأشجان

٢٢- للمرء فى الدنيا وجم شئونها
ما شاء من ربح ومن خسران

٢٤- الناس غاد فى الشقاء ورائح
يشقى له الرحماء وهو الهانى

٢٦- فاصبر على نعم الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سيان

فانظ أيها القارئ إلى هذه المرثاة هل ترى بينها وبين سابقتها من تفاوت ؟ على أننا قد تناولنا الأبيات عفوا كما بدرت لنا ولم نتحر الأقصاء فى الترتيب . ولو أننا غيرنا بعض الضمائر التى تعلق الاسم على الأسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التى تصل الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناهما لم يكد يجتمع بيت من القصيدة على بيت ، وإنما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال القارئ نفسه : هل قرأ فى الشعر أشد تفككا منها ؟ فعلى حسب الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقى وهل هى نبعت من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل الوهاد والنجاد أو تقطرات من عقل

ناضب ينبض بالقطرة بعد القطرة بخلع الضرس وبخلع النفس فتأتى كالرشاش لا يتولد منه إلا الوحل واليبس ؟

وقبل أن نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية ننبه من يستبهم عليه الأمر إلى أننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الأقيسة المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وأنما نريد أن يشع الخاطر فى القصيدة ولا ينفرد كل بيت فتكون كما أسلفنا بالأشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة كما رأينا فى هذه القصيدة .

(٢) الاحالة

أما الاحالة فهى فساد المعنى وهى ضروب فمنها الاعتساف والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه وشواهدها كثيرة فى هذه القصيدة خاصة .

فمن ذلك قوله :

السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس لأنها لا تقام على أرجل وإنما تطرح على الأرض كما يعلم شوقى . اللهم إلا إذا ظن أنها أعمدة تلغراف . على أنها لو كانت مما يقف أو ينكس لما كان فى المعنى طائل إذ ما غناه قول القائل فى رثاء العظماء أن الجدران أو العمد مثلا نكست رءوسها لأجله .

ومنه قوله :

ان كـان للاخلاق ركن قـائم (فى هذه الدنيا) فـأنت البانى

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والأداء أجمعه على طريقته ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئا ولما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ضير ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام فى كل لغة ولأى قـصد إنما يحتـاج إليه للدلالة على مـعنى معين أو وصف يطابق موصـوفه فإن لم يكن كذلك فـهو وبحران المحمـوم وهتر المجنون سواء ، والشعر إذا لم يصح أن يقال فى انسـان معلوم أو صح أن يقال فى كل إنســان : فى السيـاسى والعـالم والأديب والواعظ والصـانع ، فهـو الهذيان بعينه ، فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل؟ أيفهم أنه وحـده هو البانى لكل ركن للأخلاق فى هذه الدنيـا ؟ إذا فماذا يقال عن النبى أن قيل هذا عن الزعيم السياسى ؟

وهل لا يصح حينئـذ أن يقال هذا القول فى قائد الحـرب وفى جوابه الآفـاق وفــى خـطيب المحـافل وفــى التـاجـر الـسـرى والوزير المحنك والمربـى المرشد والمختـرع الحاذق فى كل إنسان بل فى الناس جمـيعا بل فى مـخلوقـات الله وكائناته طراً من حى ونابت جـامد ؟ فـانه على كل وجه صـرفـته قول خـلا من الصدق والمدلول سـواء أرثيت به حـجرا أم رثيت به كونفوشيوس الذى دان بمذهبه آلاف الملايين منذ الوف السنين .

ولا جرم فان كونفـوشيوس وحده صاحب شريعـة فى قومه ، وهبه

بيـهم الفرد فمـا الصين كل العالم ، وهبهـا كل العالم فمـا كان تاريخ (هـذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعـيما سياسيا يوقظ هـذه الأمة فلو قيل أنه موقظ كل نفس بمصر فـى عصره لما كان هذا حقا إذ كـم فى مصـر من رجل أيقظه كل نفس بمصر فـى عصـره لما كان هذا حـقا إذ كـــم فى مصـر من رجل أيقظه مـا أيقظ مـصطفى نفســه من الحوادث والعبـر والمعـارف وكم فيها من أناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا !

فإذا زيد على ذلك أنه موقظ كل نفس بمصر فى كل عـصر فقد صار الكلام لغوا وسفها فـإذا لم يكتف بهذا وقيل عنه إنه موقظ كل الناس من جميع الأمم فى جميع العصور فالأمر شر من اللغو وأقبح من السفه - هذا وما تجاوزنا دائرته من النهـضات السياسية فمـا ظنك إذا خرج القائل من هذه الدائرة إلى دائرة الاصلاح الأخلاقى فزعم أن ليس للأخلاق ركن قام فى هذه الدنيا إلا وهو من بناء رجل ولد فى أواخر القـرن التاسع عشر ، وأنهـا من بنائه قبل مـولده وحيث لـم تخطر له قدم ولم يســمع لأسمــه صدى ؟

إذن يكون بكم العجماوات خيرا من شعر الآدميين كما قلنا فى فصل مضى .



من الاحالة قوله :

باالله فتش عن فؤادك فى الثرى هل فيه آمال لنا وأمانى

لو سأل : هل فى قلبك المدفون فى الثرى آمال لنا وأمانى لاغتفرت له هذه الثرثرة على قلة محصلها وتفاهة مغزاها . أما الذى يسأل أن يفتش فلا يصح أن يسأل هل فى قلبك آمال وأمانى إلا فى معرض التبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولا يعى : يا هذا الذى يمشى هل أنت حى ؟

ولقد قال حكيم :

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى

فكل من يفرض فيه أنه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، بله كبار النفوس وبعيدى الهمم ومنها :

فلو أن رسل الله قد جبنوا لما ماتوا على دين ولا ايمان

الصواب فى إظهار فضل الشجاعة أن يقال أنها لازمة فى أصغر المطالب وأقرب الغايات كما يقال فى اظهار فضل المال أن الإنسان لا يقدر على أن يشترى أبرة بغيره ولا يقال فى الدلالة على شدة لزومه وبيان الحاجة إليه أنه لا يقدر على شراء مدينة بدونه .

ولو قال شاعرنا أن أحقر الناس خليق أن لا يكسب قوته القفار بغير

الشجاعة لكان لقوله معنى ، أما الاستشهاد على قدرها واستجاشة الناس لها بأنها ضرورية لمن كان رسولا ففى وسع الناس قاطبة أن يقنعوا بما دون الرسالة فلا يحتاجون إلى الشجاعة. أما أن قيل أن الشاعر يعنى أن الرسل الذين تمدهم قوة الله وتؤيدهم روح الله لابد أن يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو أفرغ منه وهل إذا سمعت أيها القارئ رجلا يخبرك أن المصارع المؤيد بالمنة ومتانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان قويا أكنت تظنه يخبرك بشئ يستحق أن ينظم فى بيت شعر ؟ فهذا الذى يخبرنا به شوقى أن صح أنه يعنى ما افترضناه

ومن أحالاته :

فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان

*

والذى يقوله الناس - وشوقى منهم إذا شاء - أن فضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وأن سعة الرحب تأزم بالطامح المتدفع ، لبعد آماد همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون أن القانع السالى بنفسح له سم الخياط ويرحب به جحر الضب !!

فأما القول بأن المطامع تفسح الدنيا والسلوان يحرجها فرأى لا يخطر إلا على فكر كفكر شوقى المقلوب .

ومن هذه الاحالات هذه الفهاهة :

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف أما الصبر على نعماها فماذا هو ! ولكن ويحنا فقد نسينا أن المصائب والخيرات سيان فلا غرابة فى أن يصبر الإنسان على النعمة وأن تبطره المحنة . هكذا يقول شوقى وما أصدقه فأننا لا نرى منحة هى أشبه بالمحنة من هذا الشعر الذى أنعم الله به عليه . ولله فى خلقه شئون .

ويقول :

يزجون نعشك فى السناء وفى السنى

فكأنما فى نعشك القمران

وزعيمنا الفقيد كان فردا والقمران أثنان فمن كان الثانى فى ذلك النعش ؟!

ولا يقال أن صاحبنا أراد مقابلة السناء السنى بالقمرين لأن السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع منير فلو أنه قال «كأنما فى نعشك القمر» أو «كأنما فى نعشك الشمس» لما نقص فى الحالتين وصف فى ذينك الوصفين . ولعمرى كيف يكون النعش فى السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى فى النعش ؟؟ وما هذا الرثاء الذى لا يتم إلا بالقاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الأفلاك . فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بأنه كالشمس والقمر بين الطفل الذى يمدح

كل ما يعرفه بأنه كالسكر فـالمدرسة سكر والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . كذلك شعـراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمـر وممدوحهم شمس وقمر ومـعشوقهم شمس وقـمر وأولادهم شمس وقمـر ولا اختلاف بين أمرئ وامرئ ولا بين حالة وحالة فى جميع هذه الأوصاف .

ويقول عافاه الله :

وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت فـتـعـود سيـرتهـا من الدوران

أى والله ظاهر . لكن الشمـوس والأقمار والنجوم التى تبـاع الحزمة منها بخمس مليمات وفى هذه نظر .

ويقول :

يا صب مصـر ويا شهـيد غرامـها هذا ثرى مـصـر فنم بـأمـان

ونقول انما يرثى بهذا البـيت غريب جاهد فى سبيل مصـر وهو بعيد عنها فـإذا قضى نحبـه ولم يرها كان من العزاء أن نتـعلل بأنه سينام فى ثراها . ومن السخف أن يقـال لرجل مات فى وطنه : أحـببت بلدك فنم فى ثراه إذا كان لا يدور بخلد أحد أنه سيدفن فى غيره .

ومن مبالغاه التى تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو أن بالـهـرمين مـن عـزمـاته بعض المضـاء تحـرك الهـرمـان

ولعله أراد المقـابلة بين الشبـاب فى البيت المتـقدم والهـرمين فى هذا

البيت ونحن ننعى على هذه المبالغـة دائما أنها لا تدل على شئ فهب أنه قال :

فلو أن بـالقطبين مـن عــزمــاته بعض المضــاء تحــرك القطبــان

أو قال :

فلو أن بـالشطين من عـــزمــاته بعض المـضــاء تحــرك الـشطان

إلى آخر المثنيات التى تسكن ولا تتحرك . ثم هب أنه قال البيت فى رثاء مصطفـى أو رثاء باستور أو فى رثاء ابن زريق أو مـشهـور كائنا من كان فماذا يختلف من المعنى ؟ ومتى كانت الأوصاف لا تتغير موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟

ويقول :

مصـر الأسيـفة ريفهـا وصعـيدها قــبــر أبر على عـظامك حــان

*

مصر أيها القارئ - ولا تخطىء فتحسبـها القاهرة المعزية فانها مصر بريفها وصــعيدها - مصر كلهـا ما هى إلا قبر واحد . فـالله در شاعرها يرثـى رجلا أحـيا نهضة بلاده فـيجعلها قـبـرا ، ولا ضـرورة وليدل على ماذا ؟ لا شئ .

وقد أجتزانا بهذه الأبيات ، لا لأنهـا كل ما فى القصيدة من شواهد

الاحالة وأعوجاج الطبع ، بل لأنها ذات طعم وأن كان رديئا ممجوجا وما سواها تافه لا طعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة أن القصيدة بجملتها بنت الاحالة والسقط فإذا سلم منها بيت من النقد فانما أكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان .



(٣) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعانى وأيسره على المقلد الاقتباس المقيد والسرقة وأعز أبيات هذه المرثاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للإنسان عمر ثان

مقتضب من بيت المتنبى :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ... ما فاته وفضول العيش أشغال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كعهدهم ... إذ ينصون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبى الحسن الأنبارى فوق تشويهه وذاك حين يقول فى رثاء الوزير أبى طاهر الذى صلبه عضد الدولة:

كأنك قائم فيهم خطيبا ... وكلهم قيام للصلاة

ونقـول شوهه لأن الخـطيب لا يخطب الناس وهم سـائرون به وأنما يفعل ذلك اللاعبون فى المعارض المتنقلة .

وقوله :

أو كان يحـمل في الجوانـح ميت   حـملوك فى الأسمـاع والأجفـان

مأخـوذ من بيت ابن النبيـه فى قصـيدته التى لم تبق صـحيـفة لم تستشهد بمطلعها :

الناس للـمـوت كـخـيل الطراد   فـالسـابق السـابق منهـا الجـواد

والبيت هو :

دفنت فى الـتـراب ولو انصـفـوا   مـاكنـت إلا فى صـمـيـم الفـؤاد

على أن المعنى مـرذول بلغ من ابتذاله وسـخفـه أن تنظمه «عـوالم» الافـراح فى أغـانيـهـا وحـسـب الشـاعر أن لا يـكون أبلغ ولا أرفع من القائلات «أحطك فـى عـينى يا سيدى وأتكحل عليك» وأنه ليقـول كما قلن :

ولو أن لـى علم مـا فى غـد   خـبـأتك فى مـقلتـى من حـذر

وقوله :

أو كـان للذكـر الحكـيم بقـيـة   لم تأت بعـد رثيت فى الـقـرآن

منظور فيه إلى بيت المعرى :

ولو تقدم فى عصر مضى نزلت   فى وصفه معجزات الآى والسور

وهذا البيت :

أو صيغ من غرر الفضائل والعلا   كفن لبست أحاسن الأكفان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسك ريا حنوطه   ولكنه ذاك الثناء المخلف

فما أضاف شوقى إلى هذه المعانى سوى أنه جعل الأكفان تصاغ وأنه تخذلق فقال :

فلو أن أوطانا تصور هيكلا   دفنوك بين جوانح الأوطان

يريد جسدا : كأنه يحسب أن الأوطان أن لم تصور جسدا لم يدفن الفقيد النابه فيها !!

وربما سرق شوقى مالا يستحق أن يسرق فهذه شطرته :

لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى

أليست هى شطرة الشريف فى أحدى همزياته :

لما نعاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة «أن المنيــة غاية الإنسان» هى من قــول الشريف أيضا «أن المنية غاية الأبعاد» وكأن القافـية صدته عن انتهاب الشطرة كلها فعاد إليها فى رثاء فريد إذ قال :

من دنى أو نأى فـان المنايا غاية القرب أو قصارى البعاد

فأتم الغنيمة فى قصيــدتين . وسنعود إلى بيان سرقاته فى فصل على حدة .

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعهم بالأعراض دون الجواهر وهو العيب الرابع الذى اخترنا الكلام عليه من عـيوب هذه القصيدة الدالة على أنماط التقليـد ومذاهبه . بيد أن الفـرق بينهما كـالفرق بين الخطأ واللعب والسخف والعـبث ولكل منهمـا سبب يمت به إلى الآخر إذا تشـابها فى الصدور عــن طبع أعوج وعقــل فارغ . وقد يســهل التفطن إلــى الاحالة ولكن التفطن إلى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة كمـا يعســر على الأطفال أدراك رزانة الرجـال انظر أيها القــارئ إلى هذا البيت :

دقات قلب المرء قـائلة له أن الحـياة دقـائق وثوان

فانه بيت القصيد فى رأى عشاق شوقى فعلى أى معنى تراه يشتمل ؟ معناه أن السنة أو مـائة السنة التى قد يعـيشهـا الإنسان مؤلفـة من دقائق وثوان ، وهذا هو جـوهر البـيت ، فـهل إذا قـال قـائل أن اليـوم أربع

وعشرين ساعة والساعة ستون دقيقة يكون فى عرف قراء شوقى قد أتى بالحكمة الرائعة ؟ ولكنهم يقولون لك أنه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هى البراعة التى تعجبنا وبها هدانا إلى واجب الضن بالحياة - وهنا يبدو للنظر فى قصر المسافة التى يذهبون إليها فى اعجابهم وأن بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . وإلا فلو قورن بين الساعة والقلب أيام كان يقاس الوقت بالساعات المائية أو الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الإنسان سر الحياة ؟

أبهذه العوارض يقدر الأحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الذى ينظم فى الحياة الإنسانية على علاقة سطحية باختراع طارئ ؟؟ ولقد قلنا فى نقدنا لرثاء فريد «أن الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الإنسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها» ونعيد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها أن الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . ويقيننا أن أحدهم لو سمع ناصحا يعظه فى موقف جد - وأى موقف جد أجد من رثاء النابغين ؟؟ - فيناديه يا أخى صن وقتك لأن قلبك ينبض كما تنبض الساعة لأغرب فى الضحك ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك فى عقله ، ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعرا يطرب له ويكبر قائله ،

وماذاك إلا لحسبانه أن الهزل جائز فى الشعر فكاهة وحكمة ، ولو علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقه أن يضحك منه ويلهو به .

وكهذا البيت أخواه هذان !

لفوك فى علم البلاد منكسا   جزع الهلال على فتى الفتيان
ما أحمر من خجل ولا من ريبة   لكنما يبكى بدمع قان

وللعلم جوهر وعرض فأما الجوهر فهو ما يرمز إليه من مجد الأمة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية . وأما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة وليس لها قيمة فيما ترفع الأعلام لأجله . فشوقى يولع بهذا العرض إذا هو نظم فى العلم ولا يعنيه ذلك الجوهر . ولا ريب أنه ما كان يذكر لف نعش المرثى بالراية المصرية لو لم تكن حمراء كى يكون لونها دمعا ودمعها دما منزوفا . وليست هذه هفوة أو فلتة بدرت منه هنا بل هى دأبه كلما وصف علما ، فقد قال فى وصف الهلال الأحمر :

كأن ما أحمر منه حول غرته   دم البراءة زكى شيب عثمانا
كأن ما أبيض فى أثناء حمرته   نور الشهيد الذى قد مات ظمآنا
كأنه شفق تسمو العيون له   قد قلد الأفق ياقوتا ومرجانا
كأنه من دم العشاق مختضب   يشير حيث بدا وجدا وأشجانا
كأنه من جمال رائع وهدى   خدود يوسف لما عف ولهانا
كأنه وردة حمراء زاهية   فى الخالد قد فتحت فى كف رضوانا

فهو يمثل راية الأمة وعنوانهـا بالوردة وبالوجنة والياقوت والمرجان فى لون الشفق . حتى الدم إذا ذكـره يكون خضابا لشيبة أو دم عـشاق. فيا للطاقـة الشعـرية !! وليتـه سلم بعد ذلـك من عيـوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خـدودا من حيث خلق الله له خـدين ولم يجعل لـلراية غرة ولا غرة لها بل ليتـه طابق الواقع المحسوس إذ هو قد وصف هلالا أبيض فى أثناء حمرة والهـلال الأحمر على عكس ذلك كما يدل أسـمه عليه لو أنه تنبـه إليه - ومع هذا فـانى لا قســم أن صاحـبنا رص هذه (الكانات) فى أبياته الستـة ويخيل إليه أنه لو تقدم به الزمن إلى عهـد عمر بن الخطاب لقال أشعركم من يقول كأن وكأن لا من يقول من ومن . .

ومن الغبـاء العجيب أن يصف هذا الـرجل راية حمراء ملفـوفة على نعش بطل من أبطال الوطنيـة فيــسرع بنفى الخـجل والريبة عن أحـرارها كأنهـا ملفوفة على نعش راقـصة يخشى أن يظن بـها الناس الظنون وهى بريئة عفه !! إذ ما الذى يخطر على باله الخجل والريبة فى هذا المقام وهو يرثى الرجل الذى يخاطبه قائلا .

ان كـان للأخلاق ركن قـائم   فى هذه الدنيـا فـانت البـانى

ولكنها الغباوة لا تعلم إذا بدأت أين تنتهى بصاحبها !! وليت شعر شوقى إذا كانت رايتنا كـالراية الفرنسية فماذا تراه كـان يقول ؟؟ أكان لا يرى للف النعش بها أى معنى لأنها لا تبكى بدمع أحمر ؟؟

تلك أية شوقى ومعـجزته : آية السيميـاء . معجزة الشعـوذة. كومة

الرمل كما قلنا فى أول المقال . ولقد أتم فيها امتساخ الطبائع بمخالفة الواقع فجاءت معرضا مختارا من الأغلاط ، وسملا مرقعا من النشوز والاختباط . وما كان يسعه أن يخرج نفسه خلقا آخر فيأتى بالمستوى من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم فى أغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسعه أن يعلم أن السكة الحجازية لم تصل إلى مكة فلا يقول :

لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى	فى الزائرين وروع الحرمان
السكة الكبرى حيال رباهما	منكوسة الأعلام والقضبان

والحرمان فى الحجاز هما الحرم المدنى والحرم المكى وكل قارئ للصحف ولاسيما لدن وفاة مصطفى كامل يعلم أن ليس حيال ربى مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هى حتى الساعة .

وكان فى مقدوره أن يعلم أن الحسين لم يشيع فى موكب حاشد كما شيع مصطفى فلا يقول فى وصف نعشه .

وكأنه نعش الحسين بكربلا	يختال بين بكى وبين حنان

وقد رأيناه يغير على قصائد الشريف افتراه لم يفقه رائتيه التى يقول منها فى مصرع الحسين .

وخر للموت لا كف تقلبه	الا بوطئ من الجرد المحاضير
كأن بيض المواضي وهى تنهبه	نادر تحكم فى جسم النور
تهابه الوحش أن تدنو لمصرعه	وقد أقام ثلاثا غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهور سيارة . ومن العامة من يستظهر خبره ويعلم كيف أنه قاتل حتى أثخن بالجراح وأنه - لا حيا الله قاتليه - مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة وأكثر من أربعين ضربة ثم ديس بالخيل ورض جسده واحتز رأسه وطوفه ابن زياد الكوفة . ثم أرسله إلى يزيد فى خبر فاجع لا حاجة إلى تفصيله . وأنى لمن يموت هذه الميتة أن تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه فى المواكب !! ولا نقول يختال بين البكاء والحنان فما من أحد ينسب الاختيال إلى النعوش الا من كان نعشا مختالا كهذا الذى لا يميز بين تشييع قتيل إلى قبره وزف عروس إإلى خدرها . فأن زعم أنه يقصد موكب عاشوراء الذى يحتفل به الشيعة كل سنة تذكارا لوفاة الحسين فالخطأ أعظم وأقبح لأننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب فما رأيناهم يحملون نعشا وانما يقتادون جوادا مسرجا ملجما لأنهم أزكن من شوقى وادرى بما ينبغى أن يذكر به يوم الحسين إذ كانوا يحتلفون بمصره فى ميدان حرب لا بمدفنه فى الثرى .

كان يسعه أن لا يقول ذلك كما كان يسعه أن يسكت ولكنه ألهم أن يستقصى عاهات الشعر ما يتداركه منها ، إذا شاء، وما لا يتداركه . وأن يجتهد فى ذلك كأنه يكافأ على مجهوده وهو فى الحقيقة يكافأ المكافأة التى يستحقها فانه بهذه العاهات ينفق شعره بين الجهلة والسذج ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع عنه الاستحسان الا أن يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة أو يقال عنه أنه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون .

*

ولا ندع هذه القصيدة التى ملأها شوقى بما يسميه حكمة وبما يتسامى به إلى مضاهاة المتنبى ومضارعة المعرى قبل أن نكشف عن غشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين يؤمل صلاحهم واقتناعهم وأن نروز تلك البديهيات وأشباه البديهيات التى يتصنع شوقى بها الحكمة والرشد لعله يريحنا من هبنقياته ويريح نفسه من عبء لا طاقة له به .

فالحكمة فى الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهى من أصعب الشعر مراما وأبعده مرتقى لا يساس قيادها لغير طائفة من الناس توحى اليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجرى بها ألستهم آيات تنفح ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ويلقى أحدهم بالكلمة العائرة من عفو خاطره ومعين وجدانه فكأنما هى فصل الخطاب ومفرق الشبهات تستوعب فى أحرف معدودات ما لا تزيده الأسفار الضافية الا شرحا وامتدادا وتسمعها فتشع فى ذهنك ضياءها وتريك كيف يتقابل العمق والبساطة ويأتلف القدم والجدة قدم الحقيقة كأثبت ما تجلوها الحياة المتقلبة وحدة النظر الثاقب والنفس الحية التى تطبع كل مرئى بطابعها .

فهى تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ الأزل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق . كبيتى المتنبى اللذين يعدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل — عما مضى منها وما يتوقع

ولمن يغالط فى الحقائق نفسه — ويسومها طلب المحال فتطمع

فالجاهل من لا يعى والغافل من يعى لو شاء ولكنه لا يتنبه والمغالط نفسه واع منتبه يحجب بيديه ما تبصره عيناه . وهؤلاء هم الذين يغنمون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذى قسمه من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد فلن يجد انسانا غير هؤلاء تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا نقص بقدره من المعنى .

وتارة يلمع إلى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكأن قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن العبد :

لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول[1] المرخى وثنياه باليد

وهذا أجمل ما يقال فى بحبوحة العمر المرتهنة بالأجل .

وطورا تصل طرفى الفكرة فتعرضها عليك من جانبيها كما قال البحترى : .

متى أرت الدنيا نباهة خامل ... فلا ترتقب الا خمول نبيه

وطورا تصدع برأى يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز تضرب به العقد المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبى المأثور .

الظلم من شيم النفوس فان تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم

أو كقول أبى فراس .

ما كل ما فوق البسيطة كافيا ... فإذا قنعت فكل شئ كافى

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة

(١) الطول : حبل يطول للدابة لترعى والثنى الطرف .

فتصبح كأنها القانون الجامع أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس .

بغـاث الطيــر أكـثـرها فـراخـا وأم الصــقــر مــقــلات نزور

فليس الشأن كذلك فى كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيرا فى كل نسج ونتاج .

ويقرب الشـاعر الحكيم المعنى العويص والـفكرة البعيـدة فيوضحـها وضوح المألوفات كما صنع الافوه الاودى بهذا البيت الفذ .

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سـراة إذا جــهـالهـم سـادوا

فقد حـفيت الأقلام بحثا وتنقـيبا فى علوم الاجتـماع وكلت القرائح تدبرا وانعامـا فى شئون الأمم وراقبت الدول على سنن شـتى من الأنظمة والدساتير فمـا خرجت كلها بزبدة أو جـزو لا أصـدق ولا أتم من هذه الحكمة التى أهتدى إليها هذا البـدوى الناشئ فى عصور الجهالة وأنك لا تزن أمة بميزان هذا البيت إلا كنت على ثقة من السداد والاصابة .

هذه هى الحكمة الصادقة وهى كما ترى غير قاصرة على ايراد الحقيقة المسلم بها وانما هى الحقـيقة كما تبـصرها الفطرة الخصيـبة والفطنة النافذة واللسان الـبليغ ، وبغيـر ذلك لا تكون الحكمة الا ملكا مـشاعا لـلدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الآخر حكمة مبتذلة أو مغشـوشة معتملة . أشرفها ما كان

من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ولا لسابق على ناقل ، إذا قارنا بينها بين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطئ النهر الغزير ، وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى والهجير ، وأحمق ممن يحفر البئر على شاطئ النهر من يروح ويغدو ينظم من أشباه البديهيات تلك النصائح الفاشية التى حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية . «كالعلم نافع والصدق منج والبركة فى البكور واحترام الأستاذ تتقدم وفى العجلة الندامة وفى التأتى السلامة» وما إلى هذه النصائح والأمثال والحكم - ينظمها ليشتهر بالحكمة وليصيح من فوقها .

لى دولة الشعر دون العصر وائلة	مفاخرى حكمى فيها وأمثالى !!

فهل يدرى القارئ من صاحب الحكم والأمثال الفخور ؟؟ أنه هو شوقى، ثم هل يدرى ما حكمه وأمثاله التى استتبت له بها دولة الشعر ؟؟ هذه هى :

عليكم لواء العلم فالفوز تحته	وليس إذا الاعلام خانت بخذال
والعلم فى فضله أو فى مفاخره	ركن الممالك صدر الدولة الحالى
يقل للعلم عند العارفين به	ما تقدر النفس من حب وإجلال



بالعلم (تمتلك) الدنيا ونضرتها	ولا نصيب من الدنيا لجهال

فليقارن القارئ بين هذه المفاخرة وبين مفاخر التمرين الأول نحو «العلم نور . من عاشر العلماء وقر . تعلم العلم لحفظ الدرس . حلى النساء الذهب وحلى الرجال الأدب» وليسأل نفسه ماذا زاد عليها ملك الشعر المتفرد بدولته وأى ميسم يبدو عليها من مياسم نفسه وماذا من وحى الشاعرية والهام البصيرة ونهية العبقرية وأصالتها ؟؟ أليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟؟

ومن أركان ملكه أعزه الله هذه الجمل المركبة من ست كلمات فأكثر - فليتلق الوحى أناس حجبوا عن صفاء الشاعرية وليستفيدوا :

المحسنون هم اللبا ... ب وسائر الناس النفاية

أن القضاء إذا رمى ... دك القواعد من ثبير

والمال لا تجنى ثمار رؤسه ... حتى يصيب من الرءووس مدبرا

الجد غاية كل لاه لاعب ... عند المنية يجزع المفراح

سر فى الهواء ولذ بناصية السهى ... الموت لا يخفى عليه سبيل

فلم أر غير حكم الله حكما ... ولم أر دون باب الله بابا

وأن البر أبقى فى حياة ... وأبقى بعد صاحبه وثابا

ومن يعدل بحب الله شيئا ... كحب المال ضل هوى وخابا

وما الرزق مجتنب حرفة ... إذ الحظ لم يهجر المحترف

ما الدين إلا تراث الناس قبلكم ... كل امرئ لأبيه تابع تال

ومن العقول جداول وجلامد ... ومن النفوس حرائر وإماء

أرم النصيحة غير هائب وقعها　　　ليس الشجاع الرأى مثل جبانه

ولعمرى لقد كانوا يقصون علينا ونحن أطفال حكاية تاجر الزجاج مع الحمال وهى الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان يضحكنا أن نسمع التاجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمال واحدة فى أثر واحدة فيفهمه متئدا أنه: «أن آل لك حد الراكب مثل الماشى أول له بتفشر . وأن آل لك حد الغنى مثل الفقير أول له بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى أجرة «شيلة» حتى رأى شوقى أن يسمعنا نظما «أن آل لك حد الشجاع مثل الجبان أول له بتفشر» فآمنا يخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه من الأجرة الغالية »»

وهل علم أحد أن المسافر إذا آب فقد آب قبل أن يقول شوقى :

وكل مسافر سيؤب يوما　　　إذا رزق السلامة والايابا

أم علموا الحق حتى أخبرهم به مستغربا جهلهم سائلا أياهم :

أليس الحق أن العيش فان　　　وأن الحى غايته الممات

أليس كذلك أم ماذا بالله ؟؟

أم حكم أحد الأحلام إلا حين علموا منه أن :

الحق أبلج كالصباح لناظر　　　لو أن قوما حكموا الأحلاما

*

ومن أمثلة حكمته المغشوشة المعتملة قوله :

لئن تمشـى البلى تحت التـراب به   لا يؤكل الـليث ألا وهو أشــلاء

والبيت من قصيدة فى شكسبير . ومـعناه أن جثة شكسبير استعصت تحت التراب على البلى فلم يـقدم عليها حـتى مزقها - أى أنه لم يمزقـها حتى مزقها ولم يبلها حتى أبلاها ولم يتلفـها حتى أتلفها ولم تتفتت هى حـتى تفتت . مـهابة واجـلالا !! . . وأنه لما أكلهـا أكلها ولكن بعـد تقسيمها كما أن الأسد لا يؤكل إلا عضوا عضوا . .

تصـفيق متـواصل لشاعـر المشرقين والمـغربين والأرض والســماء ، المحـسن إلى واحد من رعـاياه بالتـقدير والرثاء ، المنـعم عليهم بالذكـر والايماء . . تصفـيق متواصل . . لا بـل ضحك تتجـاوب به الأصداء ، على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعر وأمير الشعراء .

فياهذا . أن جثة شكسبيـر ليست بموضع العظمة منه لأنها فى الحياة جسد تفوقـه فى الحسن والقوة أجساد كثـيرة . وهى فى الموت رفات يبلى كما تبلى بقـايا الأحياء من أكملها إلـى أدناها . ولو جاز أن يعظم أحد بأن يقال أن الموت يتهيب جسده لكان ذلك اليق بأبطال الحروب إذ كانت أبدانهم موضـع صلابة يتغلبـون بها على أقـرانهم . ولكنا مع هذا نرى المتنبى يقول فى أبى شجاع .

من لا تشابهه الأحياء فى شيم	أمسى تشابهه الأموات فى الرمم

وهو من نعلم محضتا الحروب وابن الكريهة وحلس الخيل كانوا يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحجى فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟؟ وعلى أنه لا معنى لأن يقال أن البلى تهيب أن يتمشى فيه إلا بعد تقسيمه لأن تمشيه فيه هو التقسيم . ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل إلا هو واشلاء لأن الشأن كذلك فى كل مأكول فالفأر أيضا لا يؤكل إلا وهو أشلاء والدجاجة لا تؤكل إلا وهى أشلاء بل حتى الأرز لا يؤكل إلا وهو أشلاء ممضوغة وما من شئ يزدرد لقمة واحدة فيما نظن ويظن جميع الأكلين . وصاحبنا يرثى شاعرا فيخلط هذا الخلط فعافاه الله أى نوع من أنواع العظمة يفقهه أن كان لا يفقه العظمة التى يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان ؟؟ وأين من تقدير شكسبير من يرثيه رثاء إذا صح فيه فانه يصح فى كل حيوان ؟؟

على أن لشوقى دون هذا الحضيض ينزل بالحكمة إليه فيلحقها بوظيفة كتاب الاعلانات ويكلف الشعر أن يقول :

احذر التخمة أن كنت فهم	أن عزرائيل فى حلق نهم
واتق البرد فكم خلق قتل	من توقاه أتقى نصف العلل
اتخذ سكناك فى طلق الجواء	بين شمس ونبات وهواء
خيمة فى البيد خير من قصور	تبخل الشمس عليها بالمرور

وتقول : أن كانت هـذه حكمة وشعرا فلم لا يكون كـاتب «احترس من النشـالين» و «أن أردت النزول أطلب من الكمـسارى توقـيف القطر» نابغة يستملى الحكمة ويستمد وحى الشعر ويرتجل البلاغة ؟؟

وتكميلا للبيان المتقـدم نورد هنا أبياتا يجوز أن يكون معناها مطروقا شائعـا ويجوز أن يكون من جـوامع الكلم ليتبين كـيف يتناولها الشـاعر المطبوع فينفث فيـها حياته وكيف تعن للنظام المقلد كـما هى ونختارها من مـعـان ورد مثلهـا فى شـعر المتنبى الذى يقـتـفى شـوقى أثره ويطمع أن يجاريه . وهذا بعضها :

لولا المشـقـة سـاد النـاس كلهم	الجـود يـفـقـر والأقـدام قـتـال
ألف هذا الهـواء أوقع فى الأنفـ	س أن الحـمـام مـر المذاق
من أطاق التـمـاس شئ غـلابا	واغـتـصابـا لم يلتـمسه سؤالا
من يهن يـسـهل الـهـوان عليـه	مـا لجـرح بميت ايـلام
لا يعـجبن مـضيـمـا حـسن بزته	وهل تروق دفـينا جـودة الكفن

فهـذه أبيات من رائع الحكمة تحـمل فى طواياها حجة الطبع الدامـغة وآية الفطنة البـالغـة ، وهى قد كـان يمكنك أن تقع لشـوقى من ذخيـرة الأحاديث المشاعة فتسمعـها منه كعادته فى نقل هذه الأحاديث منظومة فإذا هى مثـلا : (الجودة مـفقرة والأقـدام مقتلة . الحـمام مـر المذاق . القوى مغـتصب . من هان سـهل عليه الهـوان . لا يزين الذليل حسـن البزة) وهكذا عهدنا الأمـثال العامة فإذا شئت أن تزن الحكمـتين بميزان الصحين

فكلاهما صحيح ، ولكن ليست الصحة الواقعية هى ما نطلب من النفس الملهمة والطبيعة المشرقة والسريرة العميقة وأنما المصدر الذى تبجست منه والشخصية التى طبعتها بصورتها والقلب الذى خرجت من لدنه والحجة التى صيرتها مقنعة شافية هى بغيتنا من نجوى الالهام وهى التى يرتوى منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبى «لولا المشقة ساد الناس كلهم» ثم يتمم المعنى لأن هذه الشطرة التى لا تزيد البيت صحة تزيده حياة وتنبئنا وحدها بأن فى البيت حقيقة أقرب إلينا وحجة ألصق بنا وثمرة أجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة التى تمتحن بموازين الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة بأنها «ألف هذا الهواء» فهل ترى أصدق من هذا التعبير !! أليس المتنبى قد لمس به سر كل تركيب فى هذه الموجودات التى ليس كيانها الاعادة تألفها زمنا ثم تتبدلها ؟؟ ومثل ذلك يقال فى بقية الأبيات .

وصفوة القول أن الحكمة المبتذلة أيسر ما يتعاطاه النظامون لأنها صوغ متاع مشاع على حين أنهم لا يمسون الحكمة العالية مساسا ولن يقاربوها ولا اختلاسا . لأنهم لا يملكون جوهرها ولا يقدرونه لو وقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته وسهولته . وربما خدع بعض الناس فى بعض أقوالهم فخالوها من قبيل الحكمة العالية لما يبهرهم من رنين صياغتها وبريق طلائها فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين أن أرقى ما يرتقون إليه أن يأتون بكلمة مقبولة فى شئون المعيشة وفرق بعيد

وبون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية ، فأما الأولى فبنت المران والمكابدة تقرأ آلافا من أمثالها فى كتب اللياقة ونصائح «أياك وحذار عليك» وأما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة وثمرة التفوق فى شمائلها المقدسة وضمائرها السرمدية . كتابها صفحات الأكوان وسريرة الإنسان ومن ينابيعها العقائد والأديان وتنبثق روح الرشد والبيان . الأولى لون من ألوان البيئة المكتسبة والثانية قبس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان .

وربما أتفقت الحكمة المطبوعة لمن لا شك فى غلبة الصناعة عليه كالحريرى على ما أذكر حين يقول :

كل من الوجود يطلب صيدا غير أن الشباك مختلفات

ولكنها فلتات لا يقاس عليها .

ولقد ذاع لشوقى بيت سوقى فظن أنه سقط على كنز وطار به كأنه لا يصدق أنه له أو كأنه يخشى أن ينازعه لفرحته به وهو .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فان تولت مضوا فى أثرها قدما

ثم كرر أيضا فى قوله :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره إذ يقول :

ملك على الأخلاق كان بناؤه   من نحت أولكم ومن صوانه

وكرره فى نشيده وفى قصائد أخرى وكل هذا الفرح بمعنى يعد من تحصيل الحاصل أن كان له مدلول ، فليس يقول لك ما يستحق أن تصغى إليه من يخبرك بأن الأخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع وقوام الأمم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف فانما يقرر البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية أو حقائق التمرينات الأولية .

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس فى بائيته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب   بقر تمشى ولها ذنب

لا تغضب يوما أن شتمت   والناس إذا شتموا غضبوا

إلى أن يقول :

الناقة لا منقار لها   والوزة ليس لها قتب

وكثيرا فى قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه أن يقال فيها أنها سخيفة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحت أن يتسأثر بدولة الحكم والأمثال .

وقلنا أن كان للبيت مدلول ، لأن البيت فى الحقيقة لا مدلول له .

فلو أنك حذفت كلمة الأخلاق وجعلت مكانها أصفارا لما نقص من معناه شئ . لأن هذه الكلمة لا تؤدى معنى محـدودا فى الذهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصـدق والسخاء وحسن المعـاشرة والوداعة والحلم ، وقـد يفهم منمهـا نقيض ذلك من الطبـاع كالعناد والمراءاة والدهاء والبـطش وهو ما يفهم أحـيانا من كلام الأفـرنج حين يصفون رجـلا بأنه من ذوى الطبائع البارزة والحـيوية المتينة فـأى المعنيين يقصـد شوقى ؟؟ أن من الأمم ذوات الحيوية الغلابة من لا تعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقة فضلا وهى مع ذلك من تأصل مـادة الحياة فـيها وأحـتوائها علـى بواعث القوة والسيـادة بحيث لا يخشى عليـها الانقراض العاجل أو البـوار . والتاريخ غاص بسيـر هذه الأمم . وأن منها لما تحمد سجاياه ثم لا تلفـيه من القوة على نصيب وافر فليقل لنا شوقى ما غناه بيته أن كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو إسرائيل .

ولقـد أضحكنا مـرة أحد الثـرائرة الذين يتلقـفون من الكلام مـا لا يفقهون فقال لنا أن البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس الناس وأن فى ذيوع بيت شوقى لدليلا على قيمـته . فقلت له يا صاح : أشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردى .

لا تقل أصلى وفـصلى أبدا أنما أصل الفتى ما قد حصل

فان كان لهذا الشعر قيمته فهنيئا لنا!! أننا أمة من ثلاثة عشر مليون حكيم بل هنيئا للإنسانية فان الشمس لا تطلع إلا على الحكماء من أبنائها .

رثاء الأميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الأستار ، وبقبر النبي المختار . أقسم بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسينى والضريح الزينبى ومقام السيد البدوى ومزار كل شريف من ولد فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما أن دفنوا بالأمس الا نيرة .

بهذا القسم ، أو على الأصح ، بهذه الأقسام استهل شوقى رثاءه للأميرة المحسنة فاطمة بنت إسماعيل . وهى منثور قوله :

حلفت بالمستترة	والروضة المعطرة
ومجلس الزهراء فى الـ	ـحظائر المنورة
مراقد السلالة الطـ	ـيبة المطهرة
ما انزلوا إلى الثرى	بالأمس الا نيرة

ولولا أن الأمر أظهر من أن يحتاج إلى قسم لأقسمت له بكل قبلة ومقام ، وبكل نبى وأمام ، أنه لنسيج وحدة فى فكاهة الرثاء ، أن كان للرثاء فكاهة ، ولم لعمر الله لا يكون له فكاهة وقد أرانا شوقى فى مراثيه أجمع فنا مبتدعا منه وطفق يبكى من يبكيهم كافة بنمط يلتبس عليك فيه الجد بالمزح ، ويقترن العبث بالمدح - أفرأيت أحدا قط يقسم

لك على صدقه فى تعداد مناقب مرثيه كأنه يخشى التكذيب أو يتقى أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة غير شوقى ؟؟ وإذا أطرد هذا فى جميع شعره فلم لا نحسن الظن ونتلقاه منه على أنه مذهب جديد فى بابه ونتخذ له اسما فى أصول البلاغة مصطلحا عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا أو اسما آخر مقبولا لديه أن لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من مراثيه وأنها لكثيرة طويلة بحمد الله الذى لا يحمد على المكروه سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون فى اختراع شوقى لهذا الباب واطراده فى قصائده جميعا وفى أبيات القصيدة الواحدة ، نقول سنريهم أنها ليست بفلتة نظم أو هفوة خاطر ولكنها أصول يرعاها وأسوم يعيها ولا ينساها . وإلا فلو كان حذره من التكذيب واتقاؤه تهمة المداجاة فلتة سبقت بها قريحته فى مطلع القصيدة فماذا كان يدعوه إلى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو ... د والوفود المحضره
وكل دمع كذب ... ولوعة مزورة

إلا أن الأمر بين لمن ينصفون . . . فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم فأشعرنا الريب وأتهم نفسه فى ثنائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكذب واللوعة المزورة فأرانا حكمة ذلك القسم وأنه لم يبدر منه جهلا بفنون الرثاء وانما تفننا واختراعا لم يسبق إليه ، ونرجو أن لا يبارى فيه

. . . فأما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا الرثاء القديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للأشياء بغير أسمائها . فلابد أذن من أن يتقى له اسم مبتكر طريف وعليه هو تحرير قواعده وضبط أصوله ورسم نماذجه .



عجيب والله أمر هذا الرجل !! ما رأينا خطأ أشبه بالتعمد ولا توقرا أقرب إلى المجانة من هذائه فى رثائه . وما التبس الهزل بالاحلال قط التباسهما فى تأبينه وبكائه . فما كان أعناه عن الحلف ومبرات الأميرة أشهر من أن يرتاب فيها أو يتنازع عليها ؟؟ وهبها لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر إذا لم يصدقها الناس بالإيمان أو البراهين فى قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز هذا ونسأله : ما باله يفترض أن الناس تبكى على الأميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟؟ أضروری هذا ليقول بعده أن الدموع الكاذبة لا تغنى عنها وأنه .

لا ينفع الميت سوى صالحة مدخرة

أيقول ذلك لأن الدموع إذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت الميت وأغنته عن الصالحة المدخرة ؟؟ فإذا كان التباكى كالبكاء فى هذا المعنى فلم هذا السخف الذى يغض من المبكية والباكين وليس له من جدوى ؟؟

ونحن ما كنا لنوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا أننا نريد أن يلمس ضعف تمييز شوقى» عن التفرقة بين حالات النفوس ضعفا لا تنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا أننا سمعنا بيتين منها يرددان فى معرض الاستحسان فأحببنا أن نسمح الرغو عن محضهما لمن عساه أن يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت الأول وهو .

فاطم من يولد يمت   المهد جسر المقبرة

أعجبهم منه «جسر المقبرة» وهو معنى متوارد عليه . نذكر من السابقين إليه أبا العتاهية حيث يقول :

وعبروا الدنيا إلى غيرها   فانما الدنيا لهم معبر

وفصلة المعرى وقسمه فقال :

حياة كجسر بين موتين : أول   وثان ، وفقد المرء أن يعبر الجسر

وهوو أوضح وأوجز فى قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة المنية وأعلم   انما الشيب للمنية جسر

فالذى صنعه شوقى هو أنه سرقه وشوهه كعادته لأنه جعل المرء يخرج من المهد إلى المقبرة وما نظن الناس يموتون كلهم أطفالا !! والصحيح أن المهد أول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية بقيته .

والبيت الثانى أو هو بيت القصيدة فى رأيهم قوله :

يلفظها حنظلة كانت بفيه سكرة

يعنى الروح . وقد كان يخطر لنا أن يمتدح كل بيت فى القصيدة خلا هذا البيت ، وهذا من الغرائب فى تضاد الأذواق وانتكاسها . فقد دل به شوقى على سقم تعبيره وأراد أن يقول أن المرء يحب الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لأنه كنى عن صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان إليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو أنه قال :

يلفظها سكرة كانت بفيه حنظلة

لكان هذا الصواب فى تمثيل تأفف الإنسان من الحياة حتى إذا أدركه الموت حلا مذاقها لديه وكره أن يلفظها كأنها «السكرة» !! ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشى على يديه أو ينام على بطنه فيرى العالم معكوسا . .

ومن ترهات شوقى التى يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه القصيدة :

وكل نفس فى غد ميتة فمنشرة

فالنفوس لا تموت فى غد فحسب ولقد ماتت نفوس لا تحصى أمس وأول من أمس وقبل ذلك بآلاف السنين وهى تموت اليوم بل الساعة .

ولكن الرجل اشتهى أن يقول : أن كل نفس تموت منشرة غدا - فخانة الاداء وخذلته العبارة وهى لو استقامت له لما جاء بطائل .

وأما سائر أبيات القصيدة فلا فرق بين أثباتها وانتقادها وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقى فلا نضرب فى الهواء ولا نطرح فى البوتقة الحصباء ، والشعر إذا تساوى فيه النقد والأغضاء فخير منه الصحائف البيضاء .

ما هذا يا أبا عمرو ؟؟

مصطفى أفندى الرافعى رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء أحيانا وكثيرا ما يخطئون السداد بتريثهم وطول أناتهم . وطالما نفعه التطوح وأبلغه كل أربه أوجله إذ يدعى الدعاوى العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجوز دعواه وينتق الحافة عند من ليس يكرثهم أن يخدعوا به . بيد أن الاعتساف إذا كان رائده الخرق فى الرأى وشيك أن يوقع صاحبه فى الزلل احدى المرار فيضيع عليه ما لو علم أنه مضيعه لفدام بكل ما فى دماغه من هوس وما فى لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعى فحق علينا أن نفهمه خطر مركبه وأن قدميه أسلس مقادا من رأسه لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة .

أصدرنا الجزء الأول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شوقى وهو يعض ما ننظر إليه من شعر وجماع ما ينظر إليه الرافعى لأنه لا يبالى إذا سقط التشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقى جوهرة وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة !! ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق إليه من عنده مصمية ولا مدمية وسرق بل

أنتهب منا الكنانة والذخيرة فلم يدع فى طبعة نشيده الثانية وجها من أوجه النقد التى أتينا بها الا انتزعه وسدده وفاته أن القذيفة لا يرمى بها مرتين ولا تصيب من منزعين .

ولقد أحسن بنا الظن وأساءه فلم يستغن عنها ولم يقدر فينا التنبه إلى صنيعه ، وما له عافاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غيرنا ولا نرضى اجتراءهم على سياجنا ؟؟

وليته أعتدل أو ترفق فيعذر بعض الأعذار ولكنه أذن لنفسه بغاية الافراط ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط . فبعض هذا يا أبا درويش أو يا أبا السامى كما تكنى نفسك أو يا أبا عمرو كما تقول للجنة الأغانى فى خطابك فان صاحب المساكين حرى أن لا يغتصب بالسيف كما صنعت وفى رائعة النهار .

قلنا فى نقد نشيد شوقى أن النشيد القومى يجب «أن لا يكون وعظابل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب .

فرجع صاحبنا أبو عمرو إلى نشيده فحور منه ما استطاع بضمير المتكلم فقال :

إلى العلا فى كل جيل وزمن   فلن يموت مجدنا كلا ولن

وقد كان هذا البيت في الطبعة الأولى :

إلى العلا فى كل عصر وزمن   فلن يموت مجد مصر لا ولن

ولما أن طوى هذا الضـمـيـر ووثق من مـواراته ونفض عن يديه ترابه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئا وصاح يؤنب شوقى لقوله :

على الأخـلاق خطو الملك وابنوا إلخ .. إلخ .

ويسـألـه : «وممن هذا الوعظ يا ترى . أمن الشـعب لنفسـه أم من شوقى للشعب ؟ ص ٧٩» كما سألنا من قبل : «فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة !! » وكما أخذنا عليه «أنه لمتوطأ مطية الفلسفة والمواعظ» .

وانكرنا من نشـيـد شوقى أنه « قـد حسـب أننا سنظل طوال الدهر كدأبنا فى يومنا هذا فنظم لنا نشـيدا لا نتخطى به فى جمـيع العصور أن يتهيـأ مكاننا وأن لا نبرح نشرع فى التمـهيد ونأخذ فى الاستـعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الأركان» .

فجـاء أبو عـمـر البيغـاء فقال : «وإذا قـيل اليوم لبنـى مـصـر هيا مهدوا للملك ومكانكـم تهيأ فهل يقال لهم هذا بعـد مائة سنة وبعد ألف سـنة وما شـاء الله وإلى آخر الدنيا ولا يزالون الدهر كله فى تمهـيد ؟ » ص ٧٨ .

وعقبنا على قول شوقى عن الشمس : «ألم تك تاج أو لكم مليا ؟» بأن الشمس «لم تكن تاج الفراعنة وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها » .

فعلمت البيغاء أيضا «أن زعم شوقى أن هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وانما كانوا يتنسبون إليها ويعبدونها » ص ٧٩ .

فالله ما أعلم البيغاوات بالتاريخ إذا لقنته !!

وعبنا على شوقى تخفيف الهمزات وأنه صير «سئلت» سيلت و«تهيأ» تهيا وشيئا» شيا .

فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول : « وهذا التسهيل فى همزة سيلت لم يفهمه إلا القليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الأساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت» ص ٨٢ .

فمنذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الأساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة !!

وروينا أن بعض الملحنين والظرفاء يستقبحون تلحين تطاول عهدهم عزا و«فخرا» إلخ إلخ .

لأن التنوين لابد أن يسقط فى الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت . قالوا : «وإذا انتهى المنشد مثلا إلى كلمة (فخرا) ومد بها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟ » ثم قلنا : «ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد» .

فروى هو كذلك عن الأدباء والملحنين أنهم : «تنادوا بقوله فخرا وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا أنها مما لا يذوقه أحد الشعراء من

طعم كلامه » . ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هذا السخف فلندعه .

أتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟؟

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثاته أخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالى نمانا أوائل علموا الأمم الرقيا

لأن الناظم ساقها مساقا ليس فيه «من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس» .

فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجبا : «كيف غفل شوقى عن أن يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم» ص ٨٣ .

فاسأله بالله ثم أسأله كيف غفل أيها الراصد اليقظان !!

ونقلنا عن بعض أعضاء اللجنة أنه لما تليت هذه المقطوعة :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادى النيل عدن .... إلخ إلخ

قال : « أن البيت الثانى منبتر وسأل : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والكوثر » .

فترك هو القائل والراوى وزوى وجهه عنهما وصاح وحده ! «كلام

مقطوع عمـا قبله» . وسأل من لدنه سؤاله : «فـإذا كان لهم بوادى النيل عدن وكوثرها فماذا ؟ » ص ٨٠

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جـعلـنا مـصـر مـلة ذى الجـلال وألفـينا الصليـب على الهـلال

ووافقناه فـقلنا : «وهو انتـقاد سديد فـاننا أن سمـينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟ » .

فوضع أصابعـه فى أذنيه - أو لم يضعهما - وأصـر وولى واستكبر استكبارا وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فإذا : «زعم أنه يريد بملة ذى الجـلال الدين مطلقا قلنا له فـان القوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسـيحين وإسرائيليين وكل هذه الأديان ملة ذى الجلال » ص ٨٤ .

هذا كله ولا إشارة إلى الديوان ولا كلمة يستشف منها أن أحدا تقدمه إلى هذا النقـد بل لعله قصـد إلى ادعائه عـنوة فكتب على الرسالة أنهـا طبعت فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونسى لغفلة ذهنه أنه ضمنها فى صفحة ٦٧ كتابا للأستاذ منصور أفندى عوض مؤرخا فى ١١ ديسمبر . . .

فهذا الخلق البغيض ونظائره من جـرثومته هى التى تملأ نفوسنا تقززا وعزوفا من أدب الجـيل الماضى وأدبائه ، ومن صناعة من ينتسبـون إليها ولكن ليس لهـا ما لأحقـر الصناعات من حرم يرعـى ودستور يفـاء إليه

ووازع يوقف عند حده - أرجحهم منها سهما أجـمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقـة الأدعاء ، وأرفعهم فـيها اسمـا أطبعهم على ضعـة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعا نقيـضان من شعور بالعجز وخيلاء ، وملق واستـعلاء : صناعـة لا واجب لها ولا حـقوق لذويهـا ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ، وما على المحترف بها بأس من السماجة والافتراء ، وإنما البأس كل البأس عليه من المروءة والحياء .

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بهـا بعضهم فى جلسة لجنة الأغانى فقـيدناها لهم وأبينا لأنفسنا أن ندخلها فى كـلامنا مع أنها أهون وجوه النقد التى أخـذناها على النشيد ومع أننا تحدثنا بهـا لأصحابنا ليلة أطلعنا عليـه قبـل توزيعه علـى الصـحف وقبـل أن نـسمع حـوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لا يستـحى أن يسم نفسه على غلاف رسـالته «بنابغه كتاب العربية وزهرة شعرائها» يعـمد إلى نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صـاحبه عـن اتمامه فينتـحله جملـة ولا يفلت منه كبـيرة ولا صغيرة حتى بسميـتنا مشاهير المذهب العتيق بالأصنام[1] ثم لا يـرى أن عليه بعـد ذلك أن يـوحى بفرد كلمة إليه ولو مـن باب الـتاريخ لحوادث هذه الأناشيد ، كأننا حين كتبنا نقـدنا فى مصر كان هو يكتب رسالته فى

(١) قال فى صفحة ٦٩ «جهد أكـبرهم أن يقرر أصنام الطبقة التى هم دولها ليكونوا بذلك أصناما للطبقة التى هى دونهم» وقال فى صـفحة ٧٠ «وكم من صنم قد تغلغل باطله ونزعت شياطينه وانفرعت رذائله فإذا ذهبت تصلح منه التوى عليك» .

أقـاصى الصين أو أطراف الســويد ولا ندرى وقـد وثق من وجهـة بهـذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون منها والهضيمة ؟

ولما أراد أن يعتمد على نفسه فى وجه من أوجه النقد لم نذكره وظن أنه فاتنا أبلغ فى الفنـد والسخف فنعى على نشيـد شوقى خلوه من لفظتى الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذه الأعمة أمة تتغنى بأنها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه فى مفاخرها بما ليس يتحقق لها كيان بدونه .

أية يا خفافيش الأدب . أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة ، لا هوادة بعد اليوم . الســوط فى اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت . وسنفرع لكـم أيها الثقـلان فأكثـروا من مســاوئكم فانكم بهـذه المساوئ تعلمون للأدب والحقـيقة أضعاف ما عملت لهــا حسناتكم أن كانت لكم حسنة يحسها الأدب والحقيقة .

عباس محمود العقاد

صنم الألاعيب (٢)

كتبنا كلمة أولى عن شكرى فى الجزء السابق أرضت اثنين : أهل المذهب العتيق البالى الذين كانوا يأبون إلا أن يعدوا شكرى بين دعاة الجديد وإلا أن يحسبوه علينا ويأخذونا بشعره ولكن هؤلاء سخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم أن يرونا نميط الأذى عن المذهب الجديد وننفى عنه وخامة شكرى . وليس يعنينا أمرهم ولا نحن نبالى سخطهم من رضاهم فانهم فى رأينا جثث محنطة .

وثانى فريقى الراضين المتعلمون من أهل البصر والاتزان وسلامة الذوق والشباب السائرون على الدرب وهم من نرجوهم لصلاح الأدب ونفض غبار الماضى عنه . ولهم لا لسواهم كلامنا .

أما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحملون على أكتافهم رءووسا وكأنما حملوا معدة أخرى لا عقلا يفكر وذهنا ينظر ويتدبر . وهم يطالبوننا أن لا نشيم الخير من أحد وأن لا يكون لنا رجاء فى مخلوق مخافة أن يخيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا فى محظور وجئنا أمرا يلزمنا عاره ويبقى وسمه !! فياويحنا لقد أسخطنا والله هذه المعدات الضاغية وهجنا ثغالبها اللاحسة بنقدنا شكرى الذى «وضع أهم أحجار النهضة وضحى

فى سبيلها شخصيته وشهرته» كما يقولون . ولكن لا ضير علينا من غضبهم ولا داعى لهذا الغضب فاننا لا ننكر أن شكرى «ضحى بشخصيته» !

مسكين هذا الصنم !! لا يعرف لبكمه ماذا يقول . ويتطوع المشفقون عليه للدفاع عنه فيجئ دفاعهم أقتل له من نقدنا . وينقمون منا أنا جعلناه صنم الألاعيب وهم يسخرون منه ويتضاحكون به . وماذا يجدى ذودهم عنه ؟ لقد كنا وكان شكرى نخلص له النصح ونمحضه الرأى والسداد ونشجعه ونغتبط بما نراه من تململه من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة فى التحرر ونجرى مع الأمل فيه فهل كان علينا أن نظل العمر طامعين فى غير مطمع ؟ ثم أهملناه على شئ من اليأس منه ثم تخشنا له وعنفنا عليه فى الزجر فلم يغن لا الأعضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادرا راكبا رأسه حتى أحفاه ؟

ولقد كنا فى كل ما كتبناه عنه فى أول عهده بقرض الشعر لا نغفل إلى جانب التشجيع أن ننبهه إلى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء الثانى من ديوانه «أنه يطأ مفاخر الصنعة بقدميه» وأنه « لايتعهد كلامه بتهذيب أو تنقيح ولا يبالى أى ثوب ألبس معانيه» وعللنا يومئذ جموحه هذا بأنه «نتيجة طبيعية لتمادى الشعراء فى المنهج القديم ولجاجتهم فى احتذاء المال العتيق» أى أنه نتيجة رد فعل فهو تطوح وتطليق للعقل يقابلهما من الجهة الأخرى غطيط المقلدين فى كهف الماضى وكان ذلك فى ١٩١٣ فهل يرى

أحـد أن رأى اليـوم لا يتـفق مـع رأى الأمس أن صح أن هناك رأيين ؟ كـلا لقـد أدينـا الواجـب لـه وللأدب قـديما ولكـنا اليـوم نـؤدى حـق الأدب وحده .

ومن المضحكات أن رسالة وردتنا بدون توقيع يقول فـيها كاتبها «أنك تتهم شكرى بالجنون وأنت مثله والجنون فى شعرك كثير» وما رمينا أحدا بالجنون بل قلنا أن ذهن شكرى متـجه أبدا إلى هذا الخاطر مكتظ به وأن لهذا الاتجاه دلالته . على أن كونى مجنونا لا يشفع لشكرى ولا لسواه فى شئ جل أو دق وما أتهـمنا شكرى ولا تقولنا عليـه ولكنه هو الذى يتهم نفسه بالجنون . ألم يقل فى كتابه (الاعترافات صفحة ٧١ » .

«انى أسئ الظن بكل شيء سواء الحـميد والذميم فـلا غرو إذا رأيت فى الضيـاء ظلاما ورأيت فى سواده ما يخلقـه سوء الظن من الأوهام التى هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل . ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه فى أذنه فـإذا تلفت إلى يمينه وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليـمنى وإذا تلفت إلى يسـاره وجد سـوء الظن يهـمس فى أذنه اليسرى ومن العجيب أن هذه الشيـاطين التى يخلقها سوء الظن لا تخفى قبحهـا لتخدعنا بل تظهر قبحـها فى حركات وجهها وجـسمها (!!) هذه الشياطين هى الخـواطر التى يهيجها سوء الظن تمرح فى ظلامـه كما يمرح الوطواط فى الظلام وتؤدى بالمرء إلى الجنون (نعم قد عـانيت من أجلها الجنون وجرعت كـأسه المرة وبلغت أعمـاقه ولا أعنى جنون من لا يحس

جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه ذلك الجنون الذى لا ينسى المرء الذكر والأمانى) أهـ .

فهل رأيت أيها القارئ اننا فيما كتبناه عن شكرى أكثر اعتدالا منه هو نفسه وأننا إذا كنا نبالغ فى شئ ففى الحذر والاحتياط وفى التحرز من التعبير بأكثر من المراد وفى فرط توخينا للقصد وتحرينا للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا أن شكرى بدا يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وأوردنا شاهدا على ذلك وفى النبذة التى اقتطفناها من «الاعترافات» شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ «ومن العجيب أن هذه الشياطين لا تخفى قبحها بل تظهر قبحها فى (حركات وجهها وجسمها) وليس هذا من المجاز فى شئ فان صاحبنا شكرى لم يدع سبيلا إلى هذا الفرض والتأويل فقد سد بابه باعلان دهشته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضا فى اعترافاته ص ١٠ :

«ويسمع المحب انغاما والحانا (غريبة) لا يسمعها غيره وليس لها وجود ويرى اشكالا هندسية بديعة لا تسمع عنها فى كتب الهندسة ويرى أزهارا خيالية لا يعرفها الباحثون فى علم النبات» فهو يسمع ويرى ما يعلم أن لا وجود له وفى هذا تأييد لقوله فى وصف جنونه «ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه» .

وشكرى قـديم العهـد بالشيـاطين والعـفاريت قـال فى ص ٢١ من الاعترافات :

«لقد كنت فى صغرى كثير الاعتقاد بالخرافات وكنت التمس العجائز من النساء أسمع قـصصهن الخرافية (حـتى صارت) هذه القصص تملأ كل ناحية من نواحى عقلى (وحتى صارت) عالما كبيرا ملؤه السحر والعفاريت وحتى صارت العـفاريت حولى تحل حيث أكـون . وأذكر أنى رأيت مرة عفريتا على سطح منزلنا وكان أسود الجـسم شخصه مثل شخص الإنسان ولكن جسمه يعلوه الشعر الكثيف» .

وليس ذلك فى صغره فقط بل هو الآن بعد أن كـبر وبلغ أشده كما كان فى حداثته .

انظر قوله فى ص ٢٥ من الاعترافات :

«وفى بعض الأحـايين أخاف خـوفا شـديدا أن يظهـر لى أبليس . فـأتلفت كى أثق أنه لم يظهـر بعـد وفى بعض الأحايين اعـتـقد وجـود العفـاريت والجن كما كنت أعتـقد فى أيام صغـرى لقد سمعت البـارحة القطط تعوى وتصرخ مثل عـواء (المجانين) أو عواء الأرواح الحائرة المعذبة (التى تتخـذ الليل جلبابا ثم تفرغ فى ذلك العـواء ما تقاسيـه من العذاب فلما سـمعت عواء القطط كـأنها الخرس إذا حـاولت الكلام لم أشك فى أنها عفاريت من الجن وأصابتنى رعدة شديدة .

وتأمل تدقيقه فى وصف هذه الأرواح الحائرة التى يذكرها وكيف أنه لا يجد تمثيلا لمواء القطط - لا عوائها - الا بعواء العفاريت وكذلك كل صوت فى سمعه قال فى ص ٢٦ :

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت فى ولدها» وهو بعد يلتذ المرعبات كمنظر النار تأكل الدور قال فى ص ٣٤ «أذكر أنى رأيت مرة حريقا هائلا فى جنح من الليل فهيج فى قلبى عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج أعماقها وجعلت أشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناى حتى كدت أرى بريقها وصارت النار تأكل المنازل فتنهدم وتنهال وتتصاعد السنة النار والدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى أوجهنا نور يزيدها شحوبا وكنت أحس لفح تلك النار فى خيالى وذهنى . . هذه هى المناظر التى (ألتذها) ومن الغريب أنى يخيل لى أن هذه المناظر وما تبعثه من الاحساس تعين المرء على أن يفهم الحياة ومعرفة سرها» .

ثم تصور شكرى واقعا له ما يصفه هنا فى اعترافاته ص ٧٢ :

« ما رأيت اثنين يتساران الا ظننت أنهما يذكرانى بسوء . . أو أحدا ينظر إلى الا حسبته يحدث نفسه عني بسوء وأنى لأسئ ظنى الآن بمن سيقرأ هذا الكتاب وما رأيت أحدا ينظر فى ثيابى الا حسبته رأى فيها شيئا خفى عنى وما رأيت أحدا ينظر فى وجهى الا حسبته رأى فيه شيئا قذرا وما رأيت أحدا عابسا الا حسبته يعبس من أجلى بغضا أو حقدا وما

رأيت أحدا باسما إلا حسبته يسـخر منى ويهزأ بى وما سمعت ضحكا لم أعرف سـببه الا خجلت خـجلا شديدا وحسـبتنى غرضـا لذلك الضحك «ومن أجل ذلك صـرت أعبـس فى وجه كل من يبـسم فى وجـهى من الناس إلا من عرفت سبب ابتسـامه وأحيانا أعرف سبب ابتسـامه فلا يمنعنى ذلك من اساءة الظن به) .

وليـست خـواطر الجنون وسوء الظـن والعفـاريت كل مـا يملأ ذهن شكرى فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام .

قال فى ص ٧٥ من الاعترافات :

«الفـزع من التهم ضـرب من سوء الظن والجبن لقـد رأين فى الحلم البارحة أنى اتهمت (كذبا) باتيان جريمة ولم يكن عندى ما ادفع به التهمة فـصرت أصـيح أمـام القاضى وأقـول أنا برئ والقـاضى يهز رأسـه ولا يصدقنى والشـاهد الكاذب يبتسم ابتـساما خـبيثـا ثم رأيت بعد ذلك أنى أساق للـسجن والاعدام أنه لحلـم يفزع . . انى لأذكر أنى أتـهمت (زورا وبهتانا) فى أيام صـغرى بسرقة علبة مـن الحلوى ولا أزال أذكر ما نالنى من الفزع أن تكون الحيـاة كلها تهم (كذا) باطلة . . على أنه من (جنون) اليأس والفـزع والجبن توقع ما لم يحـدث من المصائب وقتـل النفس بهذا التوقع» .

ولا ينبغى أن تفـوت القارئ ملاحظة تـنبيه دائمـا إلى أن هذه التهم

مزورة كاذبة حتى التى حلم بها فـان لهذا الخوف منه أن يصدق القارئ ما يرويه معنى ولا شك .

وقال فى ص ٨٥ : «يحـسب كثيـر ممن لم يتعود التـفكير أن الناس منقسـمون بفطرتهم إلى قـسمين فهم أمـا مجرمـون وأما أبرياء وهذا نظر فاسد فان فى نفس القديس جرثومة الاجرام .. أى الناس لم تخطر بباله خواطر الاجرام ولم يفـزع مما يتحرك فى نفسه من حشـرات الشر .. لقد مرت بى ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التى تدفع المرء إلى الشر فان الجريمة مثل السـراب اللامع والحياة كالصـحراء القاتلة الحرارة والمرء فـيها كالمصـحر الظمآن يلبح لـه سراب الشر (بضـياته) فيـريد أن يروى ظمأه وينفع غلتـه .. أنا اليوم برئ ولكن ما يدرينى ربمـا كنت فى غد مجـرما ربما تحركت عـوامل الشر التى فى نفسى .. وكنت أشـفق على المجرمين واملأ لهم قلبى رحمة فانه لا يحزننى فى الحياة مثل رؤية آثار التعاسة التى يجلبها الاجرام للمجـرمين لقد رأيت فى الحلم مرة أنى أتيت جريمة القتل ثم وقفت أمام جثة المقتول وقـد أحسـست دوارا وصار العرق يتصبب على جسمى وكنت أحس جريه كأنه دبيب الحشرات وقد جمد الدم فى عروقى وأسودت الدنـيا فى عيـنى وكلما أردت أن أتنفس أحـسست شـيئـا يسد مجـرى النفس وكنت أحس صوتا كـأنه صوت أعصـابى تتقطع فـيحكى صوت تقطع أوتار العـود وكنت يخيل لى كأن يدا من جليـد قد وضعت على ظهرى هذه الأحلام التى تمكن الأديب أن يعدم شـخصه فى أشخاص

غيره وأن يلج إلى أرواح الناس وعواطفهم وأن يرحم المجرم كما يرحم التعيس »

وقال فى ص ٦٢ : «ليس من سبب لبغض المتحرين وانتقاصهم الا حب الاحياء أنفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة أن انتحر فرارا من سلطان القضاء فأخذت سكينا وأدنيتها من صدرى ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغى أن أضرب نفسى الضربة القاضية فلم تهن على نفسى فقلت الليلة الآتية أفعل ذلك ولما أتت تلك الليلة أرجأت الانتحار إلى ليلة أخرى حتى أفكر فى طرق الانتحار واختار منها واحدة» .

وقد فكر فى الانتحار مرة أخرى لسبب هذا خبره قال فى ص ٩٦ :

« أنى لا أزال أذكر ذلك اليوم النحس الذى لطمنى فيه شقيقى لم يكن يدرى مبلغ اساءته فرفعت يدى لألطمه ولكن الجبن وأخاه الحزم همسا فى أذنى قائلين انك إذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو أقوى منك فلا تصيبه الا ببعض ما يصيبك فخير لك أن تتحمل اللطمة الأولى وأن تنجو سليما فوقعت يدى إلى جانبى وأحسست أن روحى قد سلبت أجل شئ فيها فنظرت إلى ما بين قدمى لأرى ما سقط منها من العزة والانفة والشجاعة ثم أحسست كأن عظامى قد احترقت ولم يبق الا رمادها وخارت قواى وعرتنى حيرة وشككت فى الحياة فجعلت أعدو من الغيظ وقد أسودت الدنيا فى عينى وجعلت انظر إلى المارين وهم ينظرون إلى فأرميهم بلحاظ المقت والكرة لأنى كنت أحسبهم يسخرون بى ويعرفون ما

حدث لى ويفـهمـون سر روحى التى أهينت ولم تعـد تصلح للحـياة ثم وقفت على غـدير وهممت أن أرمى نفسى فيـه ولكنى هزأت بنفسى تلك النفس التى تفر من اللطام إلى الحمام ثم ذهبت إلى البيت . . وخطر لى (انا أتأبط سكينا أو مسدسا وأن أنتقم من ذلك الشقى فأقتله) ولكن الحزم والجبن وهما سمير ونصيحاى الاحـا لى بالقضاء والمحاكم فجعلت أقرض أسنانى من الغيظ حتى تكسر بعضها وكنت فى حالة من حالات (الجنون) أهـ .

على أنه تشجع مرة بعد هذه وأراد أن يظهر أنفته وعزة نفسه فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفكهة بعقب هذه المرارات . قال فى ص ٩٨ :

« فلما احتدم الجدال بيننا وخـفت أن يبدأ اللطام بدأته به فان المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت أريد أن يخر مغشيا عليه منها ولكنى خفت أن أفـقأ عينه أو أن أصيب أحد أعـضائه بتلف دائم أو أن تكون ضربتى هى القاضية فتعود على بالطامة وبالعقاب الشديد . كل هذه الخواطر جـالت فى ذهنى عندما سددت يدى لألـطمه ومن أجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديدا فـمد إلى يده باللطام ولكن يخيل لى أنه لم يخش مـا خشـيت من العـقاب وأنمـا استنتـجت ذلك من وقع لطمـاته فانصرفت بأنف مهشم وعين سوداء حمراء زرقاء كأنها قوس قزح» .

وقلنا عن شكرى أنه أبكم فكأننا اخترعنا شـيئا وحسب البعض ممن يظنوننا نلقـى القول على عـواهنه ولا نبـالى أين وقع من الحـقـيقـة أننا

نستطيل بلساننا عليه مبالغة فى ايجاعه وتنقصه والزراية عليه ولهم العذر إذ ما أدراهم أنه هو القائل فى ص ٣٩ من الاعترافات :

«انى فى خلوتى بنفسى أعد الكلام البليغ والحجج الراجعة والكلمات البليغة وأتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس تكون كل كلمة من كلماتى فيها آية من آيات البلاغة ولكنى إذا لقيت هؤلاء وحادثتهم لم أجد فى كلامى هذه الآيات البينات . ثم إذا خلوت بنفسى بعد ذلك أقول كان ينبغى أن أقول لهم كذا كذا فينطلق لسانى بالكلام الفصيح البليغ . ولكنى أى مزية فى أن يكون المرء (عيبا) فى المجالس فصيحا فى الخلوات ؟ وهذا سبب من أسباب انفرادى ووحدتى . ويرى الناس (سكوتى) ووحدتى فيحسبون حياتى هادئة مطمئنة » .

وليس الأمر عنده من قبيل صمت المفكر أو المحزون أو قليل الكلام فى العادة بل هو داء قديم مستعص. قال فى صفحة ٤٧ من الاعترافات :

« لقد كنت فى صغرى كثير الحياء وكنت انظر إلى جرأة أترابى من الغلمان (وحسن لهجتهم) وأعجب بها وأتمنى أن أكون مثلهم . أذكر أن أبى زار بى صديقا له من الفرنسيين وكنت صغير السن وكان لصاحب البيت ابن فى عمرى فجاء الغلام وصافحنا وحيانا (بفصاحة وطلاقة ورشاقة) أعجب بها المحاضرون وصاروا ينظرون إلى ويضحكون» .

ولا تظن بنا الآن حاجة إلى استقصاء «الجنون» فى شعره بعد اقراره

به وتقريره أنه جرع كأسه المرقة وأنه وصل إلى أعماقه وأنه يحس بجنونه ويعرف أسبابه ونتائجه لا كأولئك البيمارستانيين البلهاء الجهلاء الذين لا يعرفون أنهم مجانين .

وفى الناس كذابون حتى على أنفسهم ولكنا عاشرنا شكرى أعواما طويلة وخالطناه ويلوناه ولا نراه بالغ فى شئ مما وصف به نفسه بل لعله آثر السكوت عن أشياء يعرفها عنه كثير من خلطائه وملابسيه . ولا يمكن أن يقال فى الرد علينا وفى تبرئة شكرى مما قرف به نفسه أن «الاعترافات» صاحبها رجل آجر اسمه م. ن وأن شكرى ليس إلا ناشرا لها فإن هذه الاعترافات ليست إلا طائفة من المقالات لا يربطها شئ إلا ضمح المتكلم وقد نشر شكرى أكثرها فى «الجريدة» بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على أنها له ثم عاد فجمعها فى كتاب طبعه فى ١٩١٦ ويرى قارئ الاعترافات أبيات شعر كثيرة واردة فى أثنائها وفى الهامش أنها من شعر المؤلف وصاحب الأبيات هو شكرى وربما ذكر اسم القصيدة التى هى منها وقد يعين الجزء من ديوانه الذى وردت فيه .

ومما هو خليق أن يبعث القارئ على الركون إلى هذه الاعترافات وتصديقها أنه يجد مصداقها فى شعره فكما أنه قال فى الاعترافات فى نفس القديس جرثومة الأجرام كذلك قال فى شعره «فقد أغرم الانسان بالشر والأذى» وقال :

كل نفس فيها الخير والشر   دواع طويلة الاغفاء

وقال معترفا أنا اليوم برئ ولكنى ربما كنت فى غد مجرما ومن شعره .

ربما شب بين جنبيك للشر   ضرام ما أن له من فناء
أنت فى اليوم واسع الجاه غض الـ   خير لدن الرخاء رطب الرجاء
خالص الكف من دماء قتيل   أبيض الطبع لم يشب برياء
ربما كنت فى غد أشعث الطبـ   ـع لئيم الخصال جم الشقاء
خاضب الكف من دماء عدو   طائر الضغن ثائر الشحناء

وقلنا أن ذهنه مشغول بخواطر الأجرام والقتل وأورنا نبذا من اعترافاته وفى شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة «الزوجة الغادرة» وهى قصة امرأة أرادت أن تسمه فسمها هو :

وهى قد أفرغت لى السم فى كوبى   وقامت تمر غير بعيد
ثم غافلتها وأفرغت كوبى   فوق ماء بكوبها منزور
ثم نلنا من الطعام بلاغا   وشربنا برءا من التصريد
ثم جاء اليوم الجديد فنامت   زوجى الرود نومة المقبور
فعل السم فعله فى حشاها   ودهاها من الردى بقيود

ومنها قصيدة عنوانها «أم أسبرطية قتلت أبنها» وهو فيها يبرر هذه الجناية لأنه فر من الحرب قال وقد نسى أنه هو أيضا جبان حتى فى مواطن «اللطام» .

أيهـا الخـائن الجبـان خـشـيت الـ — مـوت والمـوت حـادث مـقـدور
أن أمـا تعـزى لهـا قـتلت فى — قـتلك العـار لم يصبـهـا معـيب

ومنها قصيدة أسمها «قبلة الزوجة الخائنة» .

قـد قـبلتنى قـبلة مـرة — كـأنها من حـمـة العـقـرب
تنـهش جـاها لم يـكن نهـزة — لشـاحـذ الأنيـاب والمخلب
لولا ومـيض الـزاى يقـتـادنى — يعـيذنى من سـفه المغـضب (!!)
جللتـهـا بالسـيف إمـحـو به الـ — ذنب بـذنب رائع مـعـجب

وتأمل فى هذه الأبيات همس «الجبن وأخيـه الحزم» وكيف أنه يصف الجريـمة بأنـهـا رائعة معجبة . ومنهـا قصيـدة العقاب بالقتل وفـيها يعذر المجرم .

أطيلوا حـيـاة الجـارمين فـأنهـا — حـيـاة إذا سـد المطامع عـاقـر
لقـد اخلفـتـهم بلغة العـيش برهـا — زمـانا وحـابات الحـيـاة غـوادر
فبـئس حيـاة المرء والفقـر عاكف — عليـه وأسـبـاب الحـيـاة جـرائر
هنا لـك أنى للفـقـيـر لعـاذل — وانى لـه مما يعـانيـه عـاذر

كأن كل من يجـرم يكون باعثـه الفقر والخـصاصـة : وله عدا ذلك أبيات كثيرة فى تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبه .

فلو كنـت بين الناس ربا مـعـزز — ونادوك أنى فـاتك الـنفس جـارم
لالفـيت غـفرانا لديـك ورحمـة — فـمـا يغفـر الزلات إلا الأعـاظم

وقوله :

رحـت أسعى كـمـصـحـر بـان عنه الـ
صـحـب فـردا ذا وحـشـة واطراح
أو كـذى الجـرم حـين طال به السـجن
يـضـل الطـريـق عـنـد الـسـراح

وقوله :

كـأن همـوم المرء ذئب مـراوغ   فيا بؤس مقـتول ويا بؤس من نجا

وفى اعـترافـاته أنه يحلم بـأنه اتهم بارتكاب الجـنايات وكـذلك فى شعره .

يرى الناس أن النوم أم رحـيـمـة   ولكن نـوم الجـارمين عـقـاب
يسل على الحلـم أسيـاف نقـمـة   فاحـلام نومى كـالجحيـم عذاب
كم هد من عـزم صليب عذابهـا   وشـيب وراد الذنوب فـشـابوا

ومنها :

وغـيـرنى عـما عـهـد جـرائرى   فليس إلـى الحـال القـديم أياب
فـلا تحـسين الشـر يمحي بـتـوبة   وأن غـفـر الجـرم العظيم مـتـاب
يواقع كل الناس بـالفكر شـرهم   وقـد عـابنى أنى جـرؤت وهابوا
وكم حدثت بالشـرذا الخير نفـسه   وذاك حـديث مـا عليـه عـقـاب

وقد شبـه فى اعترافاته الجـريمة بالسراب وجعل للشر ضـياء وكذلك

فعل فى هذه القصيدة .

ظمئنا فخلنا الشر فى العيش منهلا   لكـن ورد الجـارمـين سـراب

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبه وبرر ذلك ولم ير فيه مأثما .

وأن بقلـبى من جـفـائـك (جنة)   فـان رام يومـا قـتلكم مـا تأثمـا
فاسـقى جنونى من دمائك جـرعة   وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

إلى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تـقصيه وما بقى من شك فى أن الرجل ممسوخ الطبيعة .

هذا هو شكرى قد رسمنا لكم صورته بقلمـه وهذه هى صفاته وميوله ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلهـا شاذ غير مألوف فى الفطر السليـمة والطباع القويمة كما نعرفها ويـعرفها الناس فهل بالغنا اللهم لا ! وهل يخرج ممن كانت هذه حالة شعر سـليم ؟ كيف والطبع أعوج والذهن مقلوب والعين تنظر إلى الحياة من منظار معكوس يريها الأشياء على غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها ؟

« إبراهيم عبد القادر المازنى »

الفهـرس

الصفحة

الجزء الأول

الجزء الثانى

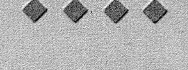
الصفحة

رقم الإيداع ٢٠٠٠ / ١٢٧٥٩

I.S.B.N 977-01-6902-1


الهيئة المصرية العامة للكتاب





هـذا هـو العـام السابـع من عمـر «مكتبـة الأسـرة» .. ومنذ سنوات طـوال لم يلتف النـاس حـول مشـروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقـافى الضخـم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنـا لهـذا المطلب الجماهيـرى العـزيـز إيمـانًا منـا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعـادة صيـاغة وتشكيـل وجدان الأمـة واستعـادة دورهـا الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبـة الأسـرة» .. أن تعيـد الـروح إلى الكتاب مصدراً هاماً وخالـداً للثقافـة فى زمـن الإبهـارات التكنـولوچيـة المعاصـرة.. وهـا نحـن نحتفـل ببـدء العـام السابـع من عُمـر هـذه المكتبـة التـى أصـدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنهـا الأسـرة المصرية فى عيونها وعقولها زاداً وتـراثًا لايبلى من أجـل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطـن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك



